دوستويفسكي

مذكرات من العَالم السُفلي

ترجمة : زغلول فهمي

فريق متميزون
E-BOOK

أقلام عربية للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

مذكرات مِنَ العَالم السُفلي

رواية

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: زغلول فهمي

عن هذا الكتاب..

تعتبر رواية "مذكرات من العالم السفلي" للروسي فيدور ديستويفسكي من أعمق وأبدع أعماله الأدبية وقد اعتبرها البعض أفضل أعماله بالفعل، وقد ترجمت إلى العربية في أكثر من ترجمة، فقد ترجمها الدكتور سامي الدروبي تحت عنوان: "في قبوي"، وترجمت مرة أخرى تحت اسم: "مذكرات قبو"، كما ترجمها أنيس زكي حسن بعنوان: "الإنسان الثرثار"، إلَّا أننا ننفرد بترجمة بديعة للأستاذ زغلول فهمي.تعتبر رواية "مذكرات من العالم السفلي" أول الأعمال الروائية الوجودية، فالرواية تأتي على لسان إنسان بغيض ومكروه وبدون اسم، يحاول إزعاج قُرائه وهو يعمل موظفًا مدنيًّا في بطرسبورج ويسيطر على الرواية الطابع المونولوجي ولا سيما في القسم الأول منها، ومن خلال هذا القسم سنتعرف على الكاتب البطل وأفكاره ومعتقداته، هي رواية أقرب إلى المذكرات، إلا أنها موجعة ومن الصعب تكرارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

لا ريب أن صاحب هذه المذكرات، والمذكرات نفسها من نسج الخيال. ومع ذلك فمن الواضح أن مجتمعنا قد يحوي أشخاصًا مثل كاتب هذه المذكرات، بل إنني أقول إنه لا بد أن يحوي مثلهم عندما نفحص الظروف التي نشأ فيها مجتمعنا.

وقد حاولت أن أعرض على أعين الجمهور إحدى شخصيات الماضي القريب على صورة أوضح مما يحدث عادة، وهي شخصية تمثل جيلًا لا يزال يعيش إلى الآن. وفي هذا الباب تحت عنوان "العالم السفلي" يقدم إلينا هذا الشخص نفسه وآراءه وكأنما يحاول أن يوضح لنا الأسباب التي أدت إلى ظهوره والتي أرغمته على الظهور بيننا. أما في الباب الثاني فقد أضيفت مذكرات واقعية لهذا الشخص تخص حوادث معينة في حياته.

المؤلف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الجزء الأول

الفصل الأول

أنا رجل مريض.. رجل حقود. رجل بليد المظهر غير جذاب. وأعتقد أن كبدي عليل. وأنا مع هذا لا أعلم شيئًا عن مرضي. ولا أدري ماذا يؤلمني على وجه التحقيق. فأنا لا أستشير طبيبًا في ذلك. ولم يحدث أن استشرت طبيبًا رغم احترامي الطب والأطباء. وفضلًا عن هذا فإني مؤمن بالخرافات إيمانًا راسخًا. إيمانًا يجعلني أحترم الطب على أية حال (فعلى الرغم من أن ثقافتي العالية تكفي لإنكار الخرافات فإنني أؤمن بها). كلَّا، إني أرفض استشارة الطبيب بسبب حقدي. قد لا تفهمون هذا. ومع ذلك فإني أفهمه. ولا ريب أنني أستطيع أن أبيِّن على وجه التحديد من ذا الذي أؤذيه بحقدي في هذه الحال. فأنا أعلم علم اليقين أنني لا أنتقم من الأطباء بعدم استشارتهم كما أعلم أكثر من غيري أنني بكل هذا لا أؤذي إلا نفسي. ومع ذلك فإذا كنت لا أستشير طبيبًا فذلك بسبب حقدي. إن كبدي عليل. فلتشتد به العلة!

هكذا ظللت أعيش فترة طويلة تبلغ عشرين عامًا. فأنا الآن في الأربعين من عمري. وكنت موظفًا في الحكومة ولكنني الآن لم أعد في خدمتها. كنت موظفًا حقودًا فظًّا وكان يطيب لي أن أكون كذلك. لم أكن مرتشيًا فكان لابد لي من أن أجد ما يعوضني عن ذلك على الأقل. (نكتة سخيفة ولكنني لن أحذفها. فلقد كتبتها ظنًّا مني أنها غاية في الفكاهة. ومع أني قد أدركت الآن أني لم أُرِد بها إلا استعراض فطنتي استعراضًا مبتذلًا فسأبقيها عن عمد).

وعندما كان يأتي أصحاب الحاجات إلى المنضدة التي كنت أجلس إليها يسألون عن مطالبهم كنت أظهر لهم غضبي وأشعر بلذة غامرة عندما أنجح في تكدير صفو أحدهم. وغالبًا ما كنت أنجح في ذلك. فقد كان معظمهم ممن يغلب عليهم الخوف والخجل ولا عجب في ذلك فهم أصحاب حاجات. أما المتغطرسون فقد كان من بينهم ضابط بالذات كنت لا أطيق وجوده. كان يأبى التواضع ويظل يضرب بسيفه على ساقه بطريقة منفِّرة. فظللت أحمل له في نفسي حقدًا وعداوة مدة ثمانية عشر شهرًا بسبب هذا السيف. وأخيرًا انتصرت عليه. إذ أقلع عن عادته في ضرب السيف على ساقه. على أن كل هذا قد حدث في صباي.

ولكن أتعلمون يا سادة ماذا كانت النقطة الجوهرية في هذا الحقد؟ إن الحافز هو أنني كنت أدرك دائمًا بيني وبين نفسي حتى وأنا في أشد حالات الحقد والغضب، أنني لست حقودًا ولا حتى رجلًا ممرورًا وأن ما أفعله لا يزيد على تسلية نفسي بتخويف العصافير دون غاية أو هدف، فقد أرغي وأزبد ولكنني قد أهدأ ويزول غضبي عندما تأتون إليَّ بدمية أعبث بها أو قدح من الشاي المحلَّى بالسكر. وقد يبلغ شعوري حينئذ حدَّ التأثر الصادق مع أنني قد أثور

على نفسي بعد ذلك بسبب هذا الضعف فأقضي الليالي يقظان مؤرقًا لخجلي من نفسي. هكذا كانت طريقة حياتي.
لقد كذبت عليكم إذن عندما قلت لكم إنني كنت موظفًا حقودًا. كذبت عليكم بدافعٍ من حقدي. فإن ما كنت أفعله لا يعدو أن يكون تسلية مع أصحاب الحاجات ومع ذلك الضابط الذي حدثتكم عنه، والحقيقة أنني ما كنت لأستطيع أن أكون حقودًا. فقد كنت دائمًا أحس في نفسي بعوامل كثيرة وكثيرة جدًّا تتنافى تمامًا مع هذا الشعور. كنت أحس بها إحساسًا لا ريب فيه وهي تتزاحم في نفسي. كما كنت أعلم أن تلك العوامل كانت تتزاحم في نفسي طوال حياتي متلهفة على منفذ. ولكنني لم أكن أسمح لها بذلك. لم أكن أسمح لها بالظهور في عمد وإصرار، فكانت تعذبني حتى أشعر بالخزي. بل كانت تدفع بي أحيانًا إلى تشنجات عصبية - وأخيرًا تسقمني- نعم لشد ما أسقمتني! والآن، ألا يخطر ببالكم أيها السادة أنني إنما أعبر عن الندم على شيء ما وأنني أستغفركم لشيء ما؟ إني واثق من أنكم تتخيلون هذا.. ولكنني أؤكد لكم أنني لا أبالي بذلك.
لم يقتصر الحال على أنني لم أستطع أن أكون حقودًا فحسب بل إنني لم أدرِ كيف أكون شيئًا على الإطلاق، لا حقودًا ولا شفوقًا ولا نذلًا ولا أمينًا ولا بطلًا ولا حشرة، والآن أقضي ما بقي من عمري في عقر داري ساخرًا من نفسي بهذا العزاء التافه الحاقد وهو أن الرجل الذكي لا يمكن أن يكون شيئًا بحقٍّ وأن الرجل الأحمق وحده هو الذي يستطيع أن يكون شيئًا ما. نعم ففي القرن التاسع عشر لابد أن يكون الرجل - بل ينبغي أخلاقيًّا أن يكون- إلى حد كبير مخلوقًا لا طابع له. فالرجل الإيجابي ذو الشخصية القوية هو قبل كل شيء إنسان محدود إلى درجة كبيرة. هذا هو اعتقادي مدة أربعين سنة. فأنا الآن في الأربعين من عمري. وأربعون عامًا كما تعلمون حياة كاملة. إنها أقصى مراحل الشيخوخة. فالحياة بعد الأربعين ضرب من سوء السلوك والابتذال والفساد. ومن ذا الذي يعيش بعد الأربعين؟ أجيبوا عن هذا السؤال في إخلاص وأمانة. سأخبركم بمن يفعل ذلك. إنهم الحمقى والتافهون.
أقول هذا في وجه جميع الشيوخ، جميع الشيوخ المبجلين ذوي الرؤوس البيضاء، بل إني أقول هذا في وجه العالم أجمع. فمن حقي أن أقول هذا في وجه العالم أجمع. من حقي أن أقول هذا لأنني سأعيش أنا نفسي حتى أبلغ الستين، فالسبعين، ثم الثمانين.. انتظروا حتى ألتقط أنفاسي..
لا ريب أنكم تتخيلون يا سادتي أنني أبغي أن أُرفِّه عنكم، ولكنكم مخطئون في هذا أيضًا. فأنا لست مطلقًا شخصًا مرحًا كما تتخيلون أو كما قد تتخيلون. ومع ذلك فأنتم ترون أنه يليق بكم من أنكم قد ضقتم ذرعًا بكل هذه الثرثرة (كما أنني أشعر أنكم تضيقون بي) وإن تسألوني عمَّن أكون. فأجيبكم بأنني مُثمِّن قانوني. ولقد عملت في خدمة الحكومة حتى أحصل على قوتي (ولم أعمل إلا لهذا السبب). وفي العام الماضي عندما ترك لي أحد أقربائي الذين

تربطني بهم قرابة بعيدة في وصيةٍ ستة آلاف روبل، اعتزلت العمل في الحال واستقر بي المقام في عقر داري. كنت أعيش في هذا الجحر من قبل ولكنني الآن قد تم استقراري فيه. إنه غرفة قذرة ريفية بشعة في إحدى ضواحي المدينة، وتقوم على خدمتي فيها عجوز ريفية حادة الطبع بسبب حماقتها، وفوق ذلك تنبعث منها رائحة عفنة. ولا يفتأ الناس يقولون لي إن الجو في بطرسبورج له أثر سيء على صحتي وأن الحياة فيها بالنسبة لدخلي الضئيل باهظة التكاليف. إني أعلم كل هذا أكثر مما يعلمه جميع هؤلاء الناصحين العقلاء المحنكين.. ولكني باقٍ في بطرسبورج، ولن أرحل عن بطرسبورج! إني لست راحلًا عنها لأنني.. آهٍ! ولكن سواء رحلت عنها أم لم أرحل فهذا أمر لا يهم على الإطلاق.

ولكن عمَّ يستطيع الرجل المهذب أن يتحدث في سرور عظيم؟ أجيبوا: عن نفسه.

إذن فسأتكلم عن نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

أريد الآن يا سادتي - سواء أكان ذلك يهمكم أم لا - أن أروي لكم لماذا لم أستطع أن أصبح حتى حشرة صغيرة. أقول لكم في جد أنني حاولت مرارًا أن أكون حشرة. ولكني لم أكن أهلًا حتى لذلك. وأقسم لكم يا سادتي أن الإفراط في الوعي علة، علة حقيقية كاملة. إذ أن الإنسان ليكفيه تمامًا فيما يخص حاجاته اليومية، ذلك الوعي الإنساني العادي الذي يبلغ نصف أو ربع الوعي الذي يتميز به الرجل المثقف في قرننا التاسع عشر، ذلك القرن التعس وبخاصة من يفرض عليه سوء حظه أن يسكن في بطرسبورج، تلك المدينة التي تعد أشد مدن الأرض نظرية وتعمدًا، (فهناك مدن متعمدة ومدن عرضية). فمما يكفي الإنسان تمامًا أن يكون لديه مثلًا ذلك الوعي الذي يعيش به جميع من يسمون بالعمليين والإيجابيين. وأراهن أنكم تظنونني أكتب هذا ادِّعاءً وتكلفًا لكي أكون ظريفًا على حساب أولئك العمليين، بل قد تظنون أنني بسبب هذا التكلف النابي أضرب بسيفي على ساقي كما يفعل ذلك الضابط. ولكن من ذا الذي يستطيع يا سادتي أن يفاخر بعلله ويزهو بأسقامه؟ ومع هذا فلا ريب أن كل إنسان يفعل ذلك، إذ يتباهى الناس فعلًا بأمراضهم وربما كنت أفعل أنا ذلك أكثر من غيري.

لا جدال في هذا. وقد كان زعمي باطلًا. ولكنني مؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن قدرًا كبيرًا من الوعي - أيًّا كان نوعه - هو في الواقع مرض. أنا أصرُّ على ذلك. ولكن فلندع هذا أيضًا لحظة. وخبروني بما يلي. لماذا يحدث أنني في نفس اللحظة - نعم في نفس اللحظة التي أكون فيها في أوج قدرتي على الإحساس بكل المعاني السامية التي ينطوي عليها (الخير والجمال)، كما تعود الناس حينًا أن يقولوا: "أشعر بأشياء بل أفعل أشياء غاية في القبح" وكأن ذلك بناء على خطة مرسومة.. وخلاصة القول إنها أعمال ربما كنا جميعًا نرتكبها ولكنها تخطر على بالي فيما يشبه العمد في نفس اللحظة التي أدرك فيها إدراكًا تامًّا أني يجب ألا أفعلها. وكنت كلما ازددت إدراكًا للخير وكل ما هو (خير وجميل) ازددت انغماسًا في آثامي بل ازددت ميلًا إلى الانغماس فيها انغماسًا تامًّا. ولكن النقطة الجوهرية في هذا هي أن ذلك كله لم يكن يحدث لي كما لو كان من باب المصادفة العارضة بل كان يحدث وكأنه أمر محتوم. فكنت أبدو وكأني في حال طبيعية للغاية ولست مطلقًا في حال من المرض أو الانحلال وبذلك تخمد في النهاية كل رغبة في نفسي لمقاومة هذا الانحلال، إذ ينتهي الأمر بما يشبه الاعتقاد (أو بالاعتقاد فعلًا) بأن تلك ربما كانت هي حالي الطبيعية. ولكنني في البداية كم تحملت من آلام في هذا الصراع! إذ لم أكن أعتقد أن تلك حال غيري من الناس وظللت طيلة حياتي أخفي هذه الحقيقة عن نفسي سرًّا لا يعرفه أحد. فكنت أشعر بالخزي (بل ربما اعتراني

الآن هذا الشعور) وقد بلغ بي الأمر أنني كنت أشعر بنوع من المتعة الخفية الشاذة الوضيعة عند عودتي إلى جحري في ليلة من ليالي بطرسبورج البغيضة يحدوني إدراك حاد بأنني في ذلك اليوم قد اقترفت مرة أخرى إثمًا بغيضًا لا سبيل إلى نقضه وأظل خفية أنهش في نفسي، أنهش، في نفسي نهشًا وأمزقها تمزيقًا وأستهلكها حتى تتحول المرارة في النهاية إلى نوع من الحلاوة المخجلة اللعينة، بل إنها تتحول إلى متعة حقيقية إيجابية! نعم متعة، متعة! إني مصرٌّ على هذا. لقد تحدثت عن هذا لأنني لا زلت راغبًا في أن أعرف على وجه اليقين ما إذا كان غيري من الناس يشعر بمثل هذه المتعة. وسأشرح لكم ذلك. كانت تلك المتعة وليدة الإدراك المفرط في الحدة بالمهانة الذاتية، وليدة الشعور بأن الإنسان قد انحدر إلى أقصى درك بما في ذلك من بشاعة، وأنه ما من سبيل إلى تغيير الوضع، وأنه لا مفر له منه وأنه لا يمكن أن يصبح رجلًا آخر، وأنه حتى لو أتيح له الوقت والإيمان للتحول إلى شيء آخر لكان من المحتمل جدًّا ألا يرغب في ذلك. أو حتى لو رغب فيه فإنه مع ذلك لن يفعل شيئًا لأنه قد لا يكون هناك في الحقيقة شيء ما يتحول إليه.

وأسوأ ما في هذا بل والأصل فيه كله أنه كان برمته متفقًا مع القوانين الطبيعية الأساسية للوعي المفرط في الحدة ومع الجمود الناجم مباشرة عن هذه القوانين. وعلى ذلك لا يكون الإنسان عاجزًا عن التغيير فحسب، بل لا يكون في مقدوره شيء على الإطلاق. ويترتب على هذا كنتيجة للإدراك الحاد ألا يلام الإنسان على نذالته. وكأن في ذلك عزاء للنذل عندما يتحقق من أنه نذل فعلًا. ولكن كفى.. فلقد قلت كثيرًا من اللغو. ولكن ماذا تراني فسرت؟ كيف يمكن تفسير متعة كهذه! بيد أنني سأفسرها. سأصل إلى جذورها! هذا هو ما جعلني أتناول قلمي..

أنا مثلًا على جانب كبير من الشعور بالكرامة، شديد الريبة سريع الإحساس بالإهانة كالأحدب أو القزم. ولكنني أقسم لكم أنه قد مرت بي أحيانًا لحظات لو حدث لي فيها أن صفعت على وجهي لكان من المحتمل أن يداخلني لهذا سرور إيجابي لا ريب فيه. أقولها جادًّا أنني ربما استطعت أن أجد حتى في ذلك لونًا خاصًّا من المتعة - متعة اليأس - متعة أشد ما تكون عمقًا وقوة وبخاصة إذا ما أدرك الإنسان القنوط من موقفه إدراكًا شديد الحدة. وعندما يصفع الإنسان على وجهه يغمره بلا ريب إدراك بأنه قد تحول إلى شيء تافه. وأسوأ ما في الأمر أنه ينتهي دائمًا بأن أكون أنا الملوم مهما تتعدد وجهات النظر فيه. بل إن أشد ما في ذلك كله مهانة وتحقيرًا هو أن يقع اللوم عليَّ لا لذنب جنيته بل طبقًا لقوانين الطبيعة إن صح هذا التعبير. فأنا ملوم أولًا لأنني أذكى ممن يحيطون بي. (فقد كنت أعد نفسي دائمًا أذكى من جميع المحيطين بي وصدقوني أنني كنت أحيانًا أشعر فعلًا بالخجل من ذلك. وعلى أية حال فقد ظللت طيلة حياتي أحول بصري عن الناس ولا أستطيع مطلقًا أن أنظر إليهم مباشرة في وجوههم). وأنا ملوم في النهاية لأنني حتى لو كنت

على جانب كبير من السمو العقلي والروحي لما كان لهذا من أثر إلا زيادة ألمي لإحساسي بعدم جدواه. فلا ريب أنني ما كنت أستطيع أن أفعل شيئًا لهذا السبب، فما كنت أستطيع المغفرة لأن مهاجمي ربما صفعني بحكم قوانين الطبيعة ولا يستطيع الإنسان أن يغفر لقوانين الطبيعة. وما كنت أستطيع النسيان لأنه حتى لو كان ذلك بحكم قوانين الطبيعة ففيه إساءة وإهانة. وفي النهاية فإنني حتى لو وددت أن أتصف بغير ذلك السمو العقلي والروحي وأردت بدل هذا أن أنتقم لنفسي ممن اعتدى عليَّ لما أمكنني الانتقام من أي شخص لأي سبب لأنني بلا ريب ما كنت أستطيع أن أوطد العزم؟ أود أن أقول بضع كلمات حول هذه النقطة بالذات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالِث

كيف يتسنى لمن يعرفون كيف ينتقمون لأنفسهم ويدافعون عن أنفسهم بصفة عامة، أن يفعلوا ذلك؟ إنهم عندما يتملكهم مثلًا الشعور بالانتقام يخلو حينئذ كيانهم كله إلا من هذا الشعور. إنهم يندفعون مباشرة نحو هدفهم كالثور الهائج الذي يخفض قرنيه ولا يمكن إلا لجدار أن يقف في سبيله (وبهذه المناسبة فإن هؤلاء السادة، أي الواقعيين والعمليين من الناس تعتريهم حيرة حقيقية صادقة عندما يواجهون جدارًا. فالجدار بالنسبة إليهم ليس مهربًا كما هي الحال معنا نحن الذين نفكر وبالتالي لا نفعل شيئًا. إنه ليس تعلة للتنحي جانبًا، تلك التعلة التي نبتهج لها نحن دائمًا كل الابتهاج وإن كنا بصورة عامة لا نكاد نؤمن بها. كلا فإنهم يحارون في صدق وإخلاص تام. فالجدار بالنسبة إليهم شيء مهدئ ويخفف عنهم ويحسم الأمر، وربما كان فيه أيضًا شيء من سحر الغموض.. ولكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد).

مثل هذا الشخص الصريح هو في نظري الإنسان الطبيعي الحقيقي كما أرادت الطبيعة أمه الرؤوم أن تراه عندما أوجدته على الأرض في رقة ورفق. إني أحسد مثل هذا الشخص الحسد كله. حقًّا إنه غبي. لست أجادل في هذا ولكن من يدري، ربما كان حتمًا على الرجل الطبيعي أن يكون غبيًّا. هذا وربما كان ذلك في الحقيقة جميلًا جدًّا. ويزداد اقتناعي بهذا الظن إن جاز أن نسميه كذلك، إذا ما نظرنا إلى نقيض الإنسان الطبيعي مثلًا ألا وهو الإنسان ذو الإدراك الحاد الذي لم يخرج بالطبع من بطن الطبيعة بل من أنبوبة اختبار (إن في ذلك ما يقرب من الصوفية يا سادة ولكنني أشك في هذا أيضًا). هذا الرجل وليد أنبوبة الاختبار تعتريه الحيرة أحيانًا في حضور نقيضه إلى حد يجعله على الرغم من إدراكه المفرط يرى بحقٍّ أنه فأر وليس رجلًا. قد يكون فأرًا حادَّ الإدراك ولكنه فأر. في حين أن الآخر رجل، وعلى ذلك إلى آخره.. إلى آخره. وأسوأ ما في الأمر أنه هو نفسه بل هو بالذات يعد نفسه فأرًا دون أن يطالبه أحد بهذا. تلك نقطة هامة. والآن فلننظر إلى هذا الفأر وماذا يفعل ولنفترض مثلًا أنه يشعر بالإهانة أيضًا (وهو يكاد يشعر بالإهانة دائمًا) وأنه يريد أن ينتقم لنفسه. وقد يزيد ما في نفسه من حقد على ما في نفس رجل الطبيعة والحقيقة L’ home de la nature et de la veritè، وقد تعتمل في نفسه رغبته الدنيئة الحقيرة في صب ذلك الحقد على رأس عدوه أكثر مما تعتمل في صدر رجل الطبيعة والحقيقة L’homme de la nature et de la vérité لأن الأخير بسبب غبائه الفطري يعد انتقامه عدلًا خالصًا واضحًا في حين أن الفأر لا يؤمن بما في هذا من عدل نتيجة لإدراكه الحاد. وأخيرًا ننتقل إلى العمل في ذاته، أي عملية الانتقام نفسها. ففضلًا عن الحقد الأساسي ينجح الفأر في خلق أحقاد أخرى كثيرة حوله على صورة شكوك وأسئلة

فيضيف بهذا إلى المسألة الواحدة مسائل أخرى كثيرة معلقة، فينشأ عن ذلك لا محالة مزيج قاتل وخليط عفن قوامه شكوكه وعواطفه والاحتقار الذي صبه عليه القوم العمليون الصرحاء، الذين يقفون حوله في وقار كقضاة ومحكمين وهم يضحكون منه ملء أشداقهم. ولا يبقى أمامه بالطبع إلا أن يطرد كل ذلك بحركة من مخلبه، تعلو وجهه ابتسامة تنبئ باحتقار متكلف لا يؤمن به هو نفسه ثم يزحف ذليلًا مهينًا إلى داخل جحره. وهناك جحره القذر العفن سرعان ما يستولي على هذا الفأر المهين المنهار حقد بارد خبيث أسوأ ما فيه أنه دائم لا يزول. ويظل مدة أربعين عامًا كاملة يذكر تلك الإهانة بأدق تفاصيلها الشائنة المذلة بل ويضيف إليها من عنده في كل مرة تفاصيل أخرى أشد هوانًا وإذلالًا بدافعٍ من حقده على نفسه وإمعانًا في إيلامها وتعذيبها بما يتخيله من أشياء. ويعتريه الخجل من هذه التخيلات غير أنه يذكر كل شيء ويذكر كل صغيرة وكبيرة مرارًا وتكرارًا بل ويختلق أشياء لم يسمع بها من قبل، يتهم بها نفسه مدعيًّا أن تلك الأشياء قد تحدث ثم لا يغفر شيئًا. وقد يأخذ في الانتقام لنفسه أيضًا ولكن شيئًا فشيئًا وبطرق تافهة من وراء الستار دون أن يكشف عن شخصيته ودون أن يؤمن بحقه في هذا الانتقام أو بنجاحه فيه لعلمه بأنه بسبب ما يبذل من جهود في الانتقام سوف يعاني أكثر ممن يثأر منه مئة مرة في حين أن الأخير قد لا يلحق به أذًى ما. ثم يذكر ذلك الفأر وهو على فراش الموت كل ما حدث له مرة أخرى في اهتمام متزايد على مرِّ السنين و..

ولكن سر هذه المتعة الغريبة ينبع من ذلك الشعور البارد البغيض المتأرجح بين اليأس واليقين حين يئد المرء نفسه - عن وعي - في عالمه السفلي حزنًا وكمدًا مدى أربعين عامًا، قانطًا من موقفه قنوطًا تامًّا وإن لم تخلُ نفسه من بعض الشك، مقيمًا في هذا الجحيم من الرغبات الجائعة المكبوتة يصطلي بحمى التردد فيتخذ من القرارات الحاسمة النهائية ما يندم عليه بعد لحظات، وهذه المتعة من الدقة والصعوبة في التحليل بحيث لا يمكن لأي شخص محدود الأفق أو حتى قوي الأعصاب أن يتذوق ذرة واحدة منها. وقد تزيدون على هذا يا سادتي بقولكم بابتسامة ساخرة: "كما قد لا يتذوقها أولئك الذين لم يصفعوا على وجوههم". وهكذا تلمحون لي في أدب أنني أنا أيضًا ربما مرت بي في حياتي تلك التجربة، ألا وهي أنني صفعت على وجهي وبالتالي فإني أتحدث حديث الخبير. أراهن أنكم تظنون بي ذلك. ولكن أريحوا أذهانكم يا سادتي فإنني لم أصفع مطلقًا على وجهي مع أنني لا أهتم مطلقًا بما قد ترونه في هذا الموضوع. بل قد يؤسفني أنني لم أصفع كثيرًا من الناس في حياتي. ولكن يكفي هذا.. لن أقول بعد ذلك كلمة واحدة في هذا الموضوع الذي استغرق اهتمامكم البالغ.

وسأواصل حديثي في هدوء عن أقوياء الأعصاب الذين لا يتفهمون ناحية جمالية معينة في المتعة. وعلى الرغم من أن هؤلاء السادة في بعض

الظروف يزأرون بأعلى أصواتهم كالثيران ومع أن هذا قد يرفع من شأنهم إلى أقصى حدٍّ إلا أنهم كما سبق أن قلت ينهارون في الحال إذا ما ووجهوا بالمستحيل، والمستحيل هنا يعني الجدار الحجري! أي جدار حجري؟ إنه بالطبع قوانين الطبيعة ونتائج العلوم الطبيعية والرياضيات. فعندما يثبت لكم مثلًا من هذه القوانين أنكم تنحدرون من سلالة القردة فعليكم أن تقبلوا هذا كحقيقة ولا جدوى من التجهم والغضب. وعندما يثبت لكم أن ذرة واحدة من أبدانكم لا بد أن تكون في الحقيقة أغلى لديكم وأثمن من مئة ألف من إخوانكم في البشرية. وأن هذه النتيجة هي الحل الأخير لكل ما يسمى بالفضائل والواجبات وجميع هذه الأهواء والتخيلات، إذن فليس عليكم إلا أن تقبلوا ذلك. ولا مفر لكم من قبوله. لأن "مضاعف اثنين يساوي أربعة" قانون رياضي. فلتحاولوا إذن أن تنكروا ذلك.

فتصبح القوانين في وجوهكم قائلة: "تُقسم لكم أنه لا جدوى من احتجاجكم. إنها مسألة اثنين مضاعفة تساوى أربعة! فالطبيعة لا تستأذنكم إذ لا شأن لها برغباتكم أو بحبكم قوانينها أو كراهيتكم إياها. فعليكم أن تقبلوها على علاتها وبالتالي جميع نتائجها. فالحائط إذن هو حائط.. وما إلى ذلك.. وما إلى ذلك".

يا للسماء! ولكن ماذا يهمني من قوانين الطبيعة والحساب عندما أكون لسببٍ ما كارهًا تلك القوانين، وتلك الحقيقة التي تقول إن اثنين مضاعفة تساوي أربعة؟ لا شك أنني لا أستطيع اقتحام الحائط برأسي إذا لم أكن حقًّا على جانب من القوة يكفي لإسقاطه ولكنني لن أهادنه لمجرد أنه حائط حجري وأني لا أملك ما يلزم لهدمه من قوة.

كأنما مثل هذا الحائط الحجري يحمل السلوى حقًّا وينطوي فعلًا على بعض عبارات المصالحة لا لسبب إلا لأنه حقيقة شأنه في ذلك شأن "اثنان مضاعفة تساوي أربعة". يا للسخف الذي لا يدانيه سخف! كم هو أجدى عليكم أن تتفهموا كل شيء وتقروا كل شيء، كل المستحيلات والحائط الحجري وألا تهادنوا أيًّا من هذه المستحيلات والحوائط الحجرية إذا كان في هذا ما يثير نفوركم. وأن تصلوا في هذا الموضوع الأزلي إلى أبشع النتائج عن طريق عمليات ربطٍ أشد ما تكون حتمية ومنطقًا بحيث تلامون بعض الشيء حتى على الحائط الحجري مع أنه من الواضح وضوح النهار أن لا لوم عليكم في قليل أو كثير. وهكذا تستغرقون في حالة من الجمود المنعم وأنتم تطحنون أسنانكم في عجز صامت بينما تفكرون مليًّا في أنكم لا تجدون حتى من تشعرون نحوه بالرغبة في الانتقام ولا تجدون - ولعلكم لن تجدوا قط - موضوعًا تصبون عليه نقمتكم ويبدو لكم الأمر كأنه خفة يد أو شعوذة أو حيلة من مقامر محتال وأن الموضوع لا يعدو أن يكون لغزًا غامضًا لا تميزون فيه شخصًا أو شيئًا ما. ولكنكم على الرغم من كل هذه الشكوك والخداع تحسون بألم في نفوسكم ويشتد إحساسكم بالألم كلما زاد اختلاط الأمر عليكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

وتصيحون أنتم ضاحكين "ها! ها! ها! إذن فستجد متعة في وجع الضرس". فأجيبكم قائلًا: "أجل؟ فهناك متعة حتى في وجع الضرس". لقد أصبت بوجع الضرس شهرًا كاملًا وأعلم أن فيه متعة. وفي هذه الحال لا يحقد الناس في صمت بل يتأوهون. ولكنها ليست تأوهات صريحة بل خبيثة حاقدة. والحقد هنا هو أهم ما في الموضوع. فالمتألم إنما يعبر عن متعة بهذه التأوهات. فلو أنه لا يشعر معها بمتعة لَما تأوَّه. إنه مثل جيد يا سادتي وسأسهب في الحديث عنه. فهذه التأوهات إنما تعبر أولًا عن خلو ألمكم من الهدف وفي هذا ما فيه من مهانة لإدراككم، كما تعبر عن نظام الطبيعة المشروع بأسره، ذلك الذي تبصقون عليه بالطبع في ازدراء، ولكنكم تعانون منه على الرغم من هذا، بينما لا تشعر الطبيعة بشيء من ذلك الألم. وكذلك تعبر تلك التأوهات عن إدراككم أنه لا وجود لعدو تعاقبونه، إدراككم عبوديتكم التامة لأسنانكم على الرغم مما تأخذونه من حبوب مهدئة. وكأن وجع أسنانكم سينتهي إذا رغب شخص ما في ذلك. أما إذا لم يرغب فسيستمر الألم مدة ثلاثة أشهر أخرى. فإذا مضيتم في سخطكم واحتجاجكم فليس أمامكم إلا أن تضربوا أنفسكم ضربًا مبرحًا أو أن تضربوا الحائط بقبضاتكم بكل ما أوتيتم من قوة إرضاء لأنفسكم وليس في وسعكم مطلقًا أن تفعلوا أكثر من ذلك. وينتهي الأمر بهذه الإهانات القاتلة والسخريات اللاذعة من جانب شخص مجهول أن تتحول إلى متعة تصل أحيانًا إلى أقصى درجات الشهوانية. وأرجو أيها السادة أن تصغوا أحيانًا لتأوهات رجل متعلم في القرن التاسع عشر وهو يعاني ألمًا في ضرسه في اليوم التالي أو الثالث لتلك النوبة عندما يأخذ في التأوه لا كما فعل في اليوم الأول، أي لمجرد شكواه من ألم الضرس فستجدونه يتأوه لا كفلاح خشن بل كرجل تأثر بالتقدم وبالحضارة الأوروبية، رجل "انفصل عن التربة وعن العناصر القومية"، كما يجري التعبير في هذه الأيام، إذ تصبح تأوهاته حاقدة خبيثة منفرة وتستمر أيامًا وليالي بطولها. ولا شك في أنه هو نفسه يعلم أن هذه التأوهات لا تجديه شيئًا. بل هو خير من يعلم بأن ذلك لا يؤدي إلا إلى تعذيب نفسه وإزعاج غيره من الناس. إنه يعلم أن المحيطين به الذين يبذل أمامهم هذه الجهود وأن جميع أفراد أسرته يصغون إليه في بغض وكراهية ولا يثقون به مثقال ذرة، وهم يعلمون بينهم وبين أنفسهم أنه في وسعه أن يتأوه بطريقة مختلفة على صورة أكثر بساطة بلا ضجيج أو صخب، كما يعلمون أنه إنما يسرِّي عن نفسه على هذه الصورة بدافعٍ من ضجره وحقده. إن في إدراكه لهذه الحقائق والمخازي تتمثل المتعة الشهوانية. وكأن لسان حاله يقول: "إني أبلبل خواطركم وأمزق قلوبكم وأحرم النوم على كل مَن بالدار. فلتستيقظوا أنتم أيضًا ولتشعروا في كل دقيقة أنني أشكو ألم

الضرس. فأنا الآن لست بطلًا في نظركم كما حاولت أن أبدو من قبل، بل لا أعدو أن أكون دجالًا حقودًا. لا بأس، فليكن كذلك! إنه ليسرني حقًّا أن تعرفوني على حقيقتي. إنه لمما ينفركم أن تسمعوا تأوهاتي الوضيعة. إذن، فلتنفركم. وسأسمعكم بعد دقيقة واحدة ضجيجًا أبغض مما مضى..". ألا تفهمون حتى الآن يا سادتي؟ كلا. يبدو أننا يجب أن نزيد من تفسيرنا للأمور وإدراكنا إياها حتى نتفهم كل ما في هذه المتعة من تعقيدات. أتضحكون؟ إنكم مسرورون. لا شك أن نكاتي يعوزها الذوق السليم يا سادتي فهي غامضة معقدة تفتقر إلى الثقة بالنفس. ولكن ذلك بالطبع يرجع إلى أنني لا أحترم نفسي. وهل يستطيع رجل نافذ البصيرة أن يحترم نفسه على الإطلاق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

أتعجبون؟ وهل يستطيع رجل يحاول أن يجد متعة في شعوره بمهانته وبذلته أن يكون لنفسه ذرة من الاحترام؟ إنني لا أقول ذلك الآن مدفوعًا بأي نوع من العاطفية وتأنيب الضمير كما أنني بالطبع لا أحتمل أن أقول: "اغفر لي يا أبي فلن أفعل هذا مرة أخرى". وليس ذلك لأنني غير قادر على أن أقول هذا بل على العكس فربما كانت قدرتي عليه أكثر مما يجب وبطريقة تثير العجب أيضًا! لقد تعودت أن أعرض نفسي - وكأنما عن عمد - في حالاتٍ لم أكن أنا المسؤول فيها قط: وكان هذا هو أبغض ما في الأمر فكنت أذرف الدموع وأخدع نفسي بالطبع مع أنني كنت فيما أفعل أبعد ما أكون عن التمثيل، بل كنت أحس في قلبي ذلك الوقت بشعور سقيم.. ولهذا لم أستطع حتى أن ألوم قوانين الطبيعة مع أنها لم تبرح تسيء إليَّ طيلة حياتي أيَّما إساءة. إنه لأمر بغيض إلى نفسي أن أتذكر كل هذا ولكنه كان بغيضًا أيضًا وقتذاك. ولا شك أنني كنت بعد دقيقة واحدة أدرك في غضب أن الأمر كله أكذوبة، أكذوبة منفِّرة، أكذوبة مفتعلة، كل هذا الندم وكل هذه العواطف وكل هذه العهود بإصلاح ما فسد. إنكم ستسألونني لماذا كنت أشغل بالي بهذه النزوات. فأجيبكم قائلًا: "إنه لمما يبعث على السأم في نفسي أن أجلس مكتوف اليدين فأشرع في ارتكاب أعمال خيالية. تلك هي الحقيقة. إنكم إذا راقبتم أنفسكم بمزيدٍ من العناية أيها السادة فستفهمون أنها كذلك. كنت أصطنع لنفسي المغامرات وأكوِّن لنفسي حياة حتى أستطيع أن أعيش على الأقل بطريقة ما. فلطالما حدث لي مثلًا أن استشعرت الإهانة عن عمدٍ ودون ما سبب معلوم. ولا شك أني كنت أعلم أنه ليس ثمة سبب لهذا الشعور وأنني إنما أفتعل ذلك. بيد أني كنت مع هذا أصل في النهاية إلى الدرجة التي أحس عندها فعلًا بالإساءة. لقد ظللت طيلة حياتي أميل إلى هذا اللون من العبث حتى أصبحت في النهاية لا أستطيع التحكم في نفسي. وفي مرة أخرى بل مرتين في الحقيقة حاولت جاهدًا أن أقع في الحب. وأؤكد لكم يا سادتي أنني تألمت أيضًا. ومع أنني كنت في أعماقي لا أؤمن بما أشعر به من ألمٍ بل كنت لا أحس إلا بأثر واهن من السخرية، إلا أنني كنت أتألم فعلًا وعلى صورة حقيقية صحيحة، وكانت تغلبني الغيرة.. وكل هذا بسبب الملل، كل هذا بسبب الملل. واعتراني الجمود. فأنتم تعلمون أن الجمود هو الوليد الشرعي المباشر للوعي، وعي المرء وهو جالس بلا حراك، وقد أشرت إلى هذا من قبل. ولكنني أعود فأكرر وأكرر في تأكيد: أن جميع أصحاب النظرة الواقعية والعمليين من الناس إنما يرجع نشاطهم إلى غبائهم وضيق أفقهم. كيف يمكن تفسير ذلك؟ سأقول لكم هذا: إنهم لضيق أفقهم يحسبون الأسباب المباشرة الثانوية أسبابًا رئيسية وبهذه الوسيلة يقنعون أنفسهم في سرعة وسهولة أكثر

مما يفعل غيرهم من الناس بأنهم قد عثروا على أساسٍ معصوم من الخطأ لنشاطهم فتستريح عقولهم وتهدأ خواطرهم، وأنتم تعلمون أن هذه هي النقطة الرئيسية. فلكي تبدأوا في عمل ما، كما تعلمون، لا مناص أولاً من أن تستقر عقولكم استقرارًا تامًّا وأن تخلوا تمامًا من كل أثر للشك والريبة. فكيف يتأتَّى مثلًا أن يستريح عقلي؟ وأين هي الأسباب الرئيسية التي أبني عليها عملي؟ أين هي الأسس؟ ومن أين لي أن أحصل عليها؟ فأنا أشغل نفسي بالتفكير وبالتالي فإن كل سبب رئيسي عندي لا يلبث أن يجر وراءه سببًا آخر أكثر أهمية، وهكذا إلى ما لا نهاية، هذا هو بالضبط جوهر كل لون من الإدراك والتفكير. لا بد أنها مسألة قوانين الطبيعة مرة أخرى. وما نتيجة ذلك في النهاية؟ نفس الشيء تمامًا. أنتم تذكرون أنني تكلمت منذ لحظة عن الانتقام، (وأنا واثق بأنكم لم تتفهموا هذه النقطة). قلت إن الرجل ينتقم لنفسه لأنه يرى العدالة في هذا. وبالتالي فقد وجد سببًا رئيسيًّا وهو العدالة. ولذلك فهو هادئ البال من جميع الوجوه. وهكذا ينفذ انتقامه في هدوء ونجاح لاقتناعه بأنه يأتي عملًا عادلًا نزيهًا. أمَّا أنا فلا أرى فيه عدلًا. بل إني لا أجد فيه أي نوع من الفضيلة، وبالتالي فإني إذا حاولت أن أنتقم لنفسي فلن يكون ذلك إلا بدافعٍ من حقدي. ولا شك أن الحقد قد يتغلب على كل شيء، على كل ما لديَّ من شكوك ولذا قد يصلح تمامًا ليكون بديلًا ناجحًا للسبب الرئيسي، لا لشيء إلا لأنه ليس سببًا. ولكن ما العمل إذا لم يكن لديَّ حتى ذلك الحقد (أنتم تعلمون أنني قد بدأت بذلك الآن) إذ يخضع الغضب عندي للتحلل الكيميائي نتيجةً لقوانين الوعي اللعينة. فما أن يمعن المرء النظر في الهدف حتى يتلاشى في الهواء وتطير الأسباب شعاعًا ولا يعثر على المجرم ويصبح الجرم لا جرم، بل شبحًا كاذبًا أو شيئًا من قَبيل وجع الضرس لا يُلام عليه أحد وبالتالي لا يتبقى إلا المخرج نفسه مرة أخرى، ألا وهو أن يضرب المرء الحائط بما يستطيع من قوة، وهكذا يتخلى عن الموضوع بحركة من يديه لأنه لم يعثر على سبب أساسي. ولتحاولوا أن تنقادوا لمشاعركم بلا تبصر أو تفكير أو سبب رئيسي منكرين الوعي، على الأقل لفترة وجيزة فتكرهوا أو تحبوا وذلك حتى لا تجلسوا فحسب مكتوفي الأيدي، فستجدون أنكم بعد يومين على أقصى تقدير أخذتم في احتقار أنفسكم لِما ارتكبتم من خداع الذات عن علم وإدراك. والنتيجة فقاعة صابون وجمود. أواه يا سادتي هل تعلمون أنني ربما كنت أعد نفسي رجلًا ذكيًّا لا لسببٍ إلا لأنني ظللت طيلة حياتي عاجزًا عن البدء في أي شيء أو الانتهاء منه. إنه لأمرٌ مفروغ منه أنني ثرثار، ثرثار غاضب لا أذًى منه مثلنا جميعًا. ولكن ما العمل إذا كانت الوظيفة الوحيدة المباشرة لكل رجل ذكي هي الثرثرة، أي سكب الماء عمدًا في غربال؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

آه يا ليت انصرافي عن العمل كان بسبب الكسل وحده! يا إلهي! كم كان يمكنني حينذاك أن أحترم نفسي. كنت أحترم نفسي لأنني استطعت على الأقل أن أكون كسولًا. ولكانت لي على الأقل صفة واحدة إيجابية أثق بها بنفسي. فيكون السؤال ما عمله؟ ويكون الجواب: كسول بليد. لشدَّ ما يكون سرور الإنسان عندما يسمع ذلك عن نفسه! فمعناه أنني قد عرفت تعريفًا إيجابيًّا ومعناه أن هناك ثمة من يقول عني أنني "كسول"، إنها مهنة ووظيفة وخط سير في الحياة. لا تمزحوا، إنها لكذلك. كان يعني ذلك أن أصبح بحقٍّ عضوًا في أفضل النوادي وأشغل نفسي دائمًا باحترام ذاتيٍّ. فقد كنت أعرف سيدًا كان يفخر طيلة حياته بخبرته باللافيت. وكان يعد هذا فضيلته الإيجابية ولم يخامره مطلقًا أدنى شكٍّ في نفسه. ثم قضى نحبه لا بضمير راضٍ فحسب بل بضمير منتصر. وكان محقًّا تمامًا في ذلك أيضًا. أقول إنني كنت أختار لنفسي خط سير في الحياة. فأصبح كسولًا أكولًا ولكن من صنف غير عادي، أحب مثلًا كل ما هو خير وجميل. ما رأيكم في هذا؟ لطالما جالت بخاطري مثل هذه الرؤى. إن عقلي وأنا في الأربعين من عمري يرزح تحت مشكلة الخير والجمال.

ولكن هذا وأنا في الأربعين، أمَّا وقتذاك.. أوه وقتذاك كان الأمر يصبح مختلفًا! ولوجدت لنفسي ضربًا من النشاط يتفق مع (الخير والجمال) وعلى وجه التحديد كنت أشرب نخب كل ما هو (خير وجميل). وأنتهز كل فرصة لأذرف دمعة في كأسي ثم أجرعها نخب كل ما هو (خير وجميل). وأحول كل شيء إلى (الخير والجمال). وأبحث عن الخير والجمال في أقذر النفايات التي لا سبيل إلى الشك فيها. وأذرف الدموع كالإسفنجة المبتلة. فإذا ما رسم فنان مثلًا صورة جديرة (بجاي) فإني أشرب نخب ذلك الفنان الذي رسم صورة جديرة (بجاي) لأنني أحب كل ما هو (خير وجميل). وإذا ما كتب مؤلف كتابًا بعنوان (كما تشاء) فإني أشرب في الحال نخب (أي شخص تشاء) لأنني أحب كل ما هو (خير وجميل).

وكنت أطلب إلى الناس أن يحترموني لهذا العمل. وأضطهد كل من لا يُظهر الاحترام لي. وأقضي حياتي قرير العين ثم أموت في عزة وكرامة. إن ذلك لجميل. إنه لجميل حقًّا! ويستدير لي كرش كبير ويتدلى ذقني من طيات ثلاث ويعلو أنفي خال أحمر أطليه بنفسي حتى يقول كل شخص يراني: هاكم أصل ثابت ها هو شيء حقيقي راسخ! ولتقولوا ما تشاؤون فإنه لمما يسرني حقًّا أن أسمع عن نفسي مثل هذه التعليقات في هذا العصر السلبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السّابع

ولكن هذه كلها أحلام ذهبية. أوه أخبروني من ذا الذي كان أول من أعلن، من ذا الذي كان أول من صرح بأن الإنسان لا يرتكب أعمالًا قذرة إلا لجهله بمصلحته الخاصة وإنه إذا كان مستنيرًا ومتيقظًا لمصلحته الحقيقية الطبيعية لتوقف في الحال عن ارتكاب الأعمال القذرة ولأصبح في التوِّ خيِّرًا ونبيلًا لأنه لاستنارته ولإدراكه مصلحته الحقيقية سيرى أن في الخير وحده نفعه الذاتي. وكلنا نعلم أنه ما من رجل يستطيع أن يعمل عن وعي ضد مصالحه الخاصة وبالتالي فإنه بالضرورة سيأخذ في عمل الخير. أوه يا للطفل الصغير! أوه يا للطفل الطاهر البريء! فمتى حدث في كل هذه الآلاف من السنين أن عمل الإنسان بدافع من مصلحته الخاصة فحسب؟ وما القول في ملايين الحقائق التي تشهد بأن الناس عن وعي وإدراك، أي مع فهمهم التام لمصالحهم الحقيقية قد تركوا وراءهم هذه المصالح واندفعوا مسرعين في طريق آخر متعرضين لخطر التهلكة دون أن يرغمهم على السير في هذا الطريق شخص أو شيء ما، بل يبدو وكأنهم لا يفعلون هذا إلا لكراهيتهم الطريق المطروق فيتخذون طريقًا آخر شاقًّا سخيفًا يبحثون عنه فيما يشبه الظلام. ولهذا فإني أعتقد أن هذا العناد وذلك الانحراف كانا من دواعي سرورهم أكثر من أية مصلحة. مصلحة! وما هي المصلحة؟

وهل تأخذون على عاتقكم إعطاء تعريف دقيق كل الدقة لما تنحصر فيه مصلحة الإنسان؟ وكيف يكون الأمر إذا حدث أحيانا أن انحصرت مصلحة الإنسان وجوبًا لا جوازًا في رغبته في بعض الحالات فيما يضيره ولا ينفعه. وإذا كان الأمر كذلك، أي إذا أمكن وجود مثل هذه الحال فإن المبدأ بأسره سينهار من أساسه. ماذا ترون، هل هناك مثل هذه الحالات؟ إنكم تضحكون. اضحكوا أيها السادة ولكن أجيبوني: هل أحصيت مصالح الإنسان على وجه اليقين الذي لا شك فيه؟ أليست هناك بعض المصالح التي لم تستبعد فحسب بل لا يمكنها بحالٍ من الأحوال أن تدخل ضمن أي تصنيف أو ترتيب؟ فأنتم أيها السادة على ما أعلم قد أخذتم سجل المصالح البشرية كله من متوسطات أرقام الإحصاء ومن القوانين السياسية الاقتصادية. فمصالحكم هي الرخاء والثروة والحرية والسلام، وما إلى ذلك. فالإنسان مثلًا الذي يعارض عن علمٍ هذه القائمة من المصالح جهارًا سيكون في نظركم وفي نظري أنا أيضًا بالطبع من أعداء التقدم والإصلاح أو رجلًا فقد عقله تمامًا: أليس كذلك؟ ولكن أتعلمون أن هذا هو ما يثير الدهشة. فلماذا يحدث دائمًا أن جميع أولئك الإحصائيين والحكماء ومحبي الإنسانية عندما يحصون المصالح البشرية يتركون إحدى هذه المصالح؟ بل إنهم لا يأخذونها حتى في حسابهم بالشكل الذي يجب أن تؤخذ به مع أن الإحصاء كله يعتمد عليها، إنها ليست مسألة

كبيرة بل ليس عليهم إلا أن يأخذوها في حسابهم ويضيفوها إلى القائمة. ولكن المشكلة هي أن هذه المصلحة الغريبة لا تدخل في أي باب من الأبواب ولا مكان لها في أية قائمة. فلديَّ صديق مثلًا.. أخ! ولكنه بالطبع يا سادتي صديقكم أنتم أيضًا. وفي الحقيقة إنه صديق الجميع!

إن هذا السيد عندما يتخذ الأهبة لأي مشروع يشرح لكم فورًا بالدقة في كياسة ووضوح كيف ينبغي أن يعمل طبقًا لقوانين الحكمة والحق. وهو إلى هذا يتحدث إليكم في انفعال وحب جارف عن مصالح الإنسان الحقيقية الطبيعية ثم يعنِّف في تهكم قصار النظر من الحمقى الذين لا يفهمون مصالحهم الخاصة ولا المعنى الحقيقي للفضيلة. وإذا به في خلال ربع الساعة من حديثه (بلا أي استفزاز مفاجئ خارجي بل لأنه ببساطة مدفوع بشيء ما داخل نفسه أقوى من جميع مصالحه) يأخذ وجهة تختلف تمام الاختلاف، فيأتي من الأعمال ما يتعارض مباشرة مع ما كان يقوله عن نفسه منذ لحظات ويتعارض مع قوانين العقل ويتعارض مع مصلحته الخاصة، بل يتعارض مع كل شيء في الحقيقة.. وألفت نظركم إلى أن صديقي شخصية مركبة ولهذا فمن العسير توجيه اللوم إليه كفرد. والحقيقة يا سادتي أنه يبدو أن هناك لا محالة شيئًا ما لدى كل إنسان تقريبًا أغلى حقًّا في نظره وأثمن من أعظم مصالحه أو (حتى لا ننحرف عن المنطق) أن هناك مصلحة عظيمة الفائدة (وتلك هي بالذات المصلحة المنسية التي تحدثنا عنها الآن). وهي أكثر أهمية وأكثر نفعًا من كل ما عداها من المصالح ومن أجل هذه المصلحة نجد الإنسان على استعداد إذا ما دعت الضرورة إلى العمل ضد جميع القوانين، أي ضد العقل والشرف والسلام والرخاء، بل في الواقع ضد كل تلك الأشياء الممتازة النافعة إذا ما أمكنه أن يحقق تلك المصلحة الأساسية ذات النفع العظيم التي هي أغلى عنده من كل شيء سواها. وسوف تجيبونني قائلين: "نعم غير أنها مصلحة على كل حال". ولكن معذرةً فسأوضح لكم هذه النقطة وليست المسألة تلاعبًا بالألفاظ. فالنقطة الهامة هي أن هذه المصلحة قد تميزت عن غيرها لا لشيء إلا لأنها تقوِّض جميع ترتيباتنا وتصنيفاتنا ولا تفتأ تدمر كل نظام يقيمه محبو الإنسانية لمصلحة الجنس البشري. إنها في الواقع تقلب كل شيء. ولكنني قبل أن أذكر لكم هذه المصلحة أريد أن أتعرض أنا نفسي للشبهات، وبالتالي أُعلن في جرأة أن جميع هذه الأنظمة الدقيقة - بل جميع تلك النظريات التي تفسر المصالح الطبيعية للجنس البشري حتى يستطيع الناس وهم في كفاحهم الذي لا مناص منه لتحقيق تلك المصالح أن يصبحوا على الفور خيرين ونبلاء - هذه الأنظمة هي في رأيي حتى الآن لا تعدو أن تكون تمرينات منطقية! نعم تمرينات منطقية. فالتمسك بنظرية إحياء الجنس البشري عن طريق تحقيق مصلحته الخاصة يكاد يشبه في رأيي.. أن نؤكد ما يقوله (باكل) مثلًا من أن الجنس البشري خلال تقدمه في موكب الحضارة يزداد رقِة وبالتالي يقل تعطشًا للدماء وتقل لياقته للحرب.

لا شك أن كلامه يبدو معقولًا من الناحية المنطقية على أساس حججه. ولكن الإنسان متحيز بطبعه للأنظمة والاستنتاجات المجردة حتى ليقبل أن يشوه الحقيقة عامدًا بل وينكر برهان حواسه لا لسببٍ إلا لتبرير منطقه. وسأضرب لكم مثلًا هو أوضح دليل على هذا. فما عليكم إلا ان تنظروا حولكم لتجدوا الدماء تسيل أنهارًا على صورة أكثر ما تكون بهجة وسرورًا كما لو كانت أنهارًا من الشمبانيا. فلتأخذوا القرن التاسع عشر بأكمله الذي عاش فيه (باكل). فلتأخذوا نابليون، نابليون العظيم وكذلك نابليون الحالي. فلتأخذوا أمريكا الشمالية، الاتحاد الدائم. خذوا مهزلة شلزويج وهولشتين.. ما الذي ترققه الحضارة فينا؟ إن الكسب الوحيد الذي تحققه الحضارة للجنس البشري هو المزيد من القدرة على تنوع الإحساسات، ولا شيء مطلقًا أكثر من ذلك، وعن طريق تطور هذه القدرة، أي (تعدد الجوانب) قد يصل الإنسان إلى حد التمتع بسفك الدماء. والحق أن ذلك قد تم له بالفعل. هل لاحظتم أن أرقى الناس وأكثرهم تقدمًا هم أكثر سفاكي الدماء براعة ممن لا يمكن أن يقارن بهم أمثال آتيلا وستنكارازين. وإذا كانوا لا يتمتعون بما يتمتع به أمثال آتيلا وستنكارازين من شهرة فلا سبب لهذا إلا كثرتهم وتعددهم فقد أصبحوا ظاهرة عادية مألوفة بيننا. وعلى أية حال فإذا لم تكن الحضارة قد جعلت الجنس البشري أكثر تعطشًا للدماء فإنها قد زادته خسة ونذالة في هذه الناحية البغيضة. فالإنسان في الماضي كان يرى في سفك الدماء عدالة وإنصافًا وكان يقضي على من يرى إبادتهم بضمير مستريح. أما اليوم فنحن ولا شك نرى أن سفك الدماء أمر بغيض ومع ذلك نقترف هذا الإثم بهمة أكثر من أي وقت مضى. أيهما أكثر سوءًا؟ أجيبوا عن هذا لأنفسكم.

يقولون إن كليوباترا (ومعذرة لاختيار مثل من التاريخ الروماني) كانت شغوفة بوضع الدبابيس الذهبية في صدور الجواري كما كانت تجد لذة في صرخاتهن وتلوي أجسامهن من الألم. ستقولون لي إن ذلك كان يحدث في عهود الهمجية إلى حد ما، ولكن هذه عهود همجية أيضًا لأننا ما زلنا حتى الآن إلى حد ما نضع الدبابيس في الصدور. وعلى الرغم من أن الإنسان الآن قد تعلم أن يرى الأمور بمزيد من الوضوح عمَّا كان يفعل في عصور الهمجية فإنه ما زال يجهل كيف يعمل طبقًا لما يمليه عليه العقل والعلم. وأنتم مع ذلك مقتنعون تمامًا بأنه ولا ريب سوف يتعلم عندما يتخلص من بعض عاداته السيئة القديمة وعندما يعيد الإدراك العام والعلم تربية الطبيعة البشرية على صورة تامة كاملة ويوجهانها في اتجاه طبيعي. فأنتم واثقون بأن الإنسان حينئذ سيتوقف عن ارتكاب الخطأ المتعمد وأنه سيضطر إلى كبت رغبته في توجيه إرادته ضد مصالحه الطبيعية. ليس هذا كل ما في الأمر بل عندئذ تقولون إن العلم نفسه (على الرغم من أنه في نظري ترف لا حاجة إليه) سوف يعلم الإنسان أنه لم تكن له في الحقيقة أية أهواء أو أية إرادة خاصة به وإنه هو نفسه لا يعدو أن يكون مفتاحًا في بيان أو صمامًا في أرغن وأن هناك

بالإضافة إليه أشياء تسمى قوانين الطبيعة. بحيث يتم كل ما يصدر عنه من أفعال لا لرغبته فيه بل لأن هذه الأفعال تتم من تلقاء ذاتها عن طريق قوانين الطبيعة. وعلى ذلك فليس علينا إلا أن نكتشف قوانين الطبيعة هذه وعندئذ لا نسأل الإنسان عن أعماله وتصبح الحياة بالنسبة إليه آية في السهولة. فحينئذ بالطبع توضع جميع الأعمال البشرية في جداول طبقًا لهذه القوانين بطريقة رياضية مثل جداول اللوغاريتمات حتى رقم ١٠٨.٠٠٠ وتدون في فهرست. أو الأفضل من ذلك أن تنشر بعض الأعمال الثقافية من قبيل دوائر المعارف، يحسب كل شيء فيها ويفسر بوضوح بحيث لا تقع في العالم حوادث أو مغامرات.

إذن فهذا هو كل ما تقولونه، أن تنشأ علاقات اقتصادية جديدة كلها قد سبق إعدادها وتم وضعها بدقة رياضية بحيث لا يلبث أن يتلاشى كل ما يمكن أن يثار من أسئلة في طرفة عين لا لشيء إلا لأنها ستجد كل الإجابات الممكنة. وحينئذ يمكن بناء (قصر البللور). بل وحينئذ.. تكون أيام الصفاء والسرور. لا ريب أنه ليس هناك ما يضمن (هذا هو تعليقي) أنها لن تكون حياة مملة للغاية مثلًا (إذ ماذا يفعل الإنسان إذا كان كل شيء محسوبًا وموضوعًا في جدول؟) غير أنه من الناحية الأخرى سيكون كل شيء منطقيًّا على صورة غير مألوفة. لا شك أن الملل قد يدفعكم إلى أي شيء. فهو الذي يجعل الإنسان يضع الدبابيس الذهبية في صدور الناس ولكن لا أهمية لكل ذلك. والعيب في هذا (وهذا هو تعليقي مرة أخرى) هو أن الناس حينئذ قد يسعدهم أن توضع الدبابيس الذهبية في صدورهم. فالإنسان كما تعلمون مخلوق غبي.. غباء منقطع النظير - أو هو بالأحرى ليس غبيًّا على الإطلاق ولكنه جاحد جحودًا لا مثيل له في الخليقة كلها - فأنا مثلًا لن يدهشني مطلقًا أن يهبَّ شخص فجأة بدون مناسبة في وسط هذا الرخاء العام بمحياه اللئيم، أو على الأصح بوجهه الساخر الرجعي واضعًا يديه في خصره يقول لنا جميعا.. "سادتي ألا يحسن بنا أن نقوِّض البناء كله وأن نلقي بعيدًا بالفلسفة العقلية فتذروها الرياح، لا لغرض إلا لتذهب هذه اللوغاريتمات إلى الشيطان ونتمكن مرة أخرى من أن نعيش بإرادتنا الحلوة الحمقاء!" ولكن ذلك أيضًا لا أهمية له غير أن ما يبعث على الضيق في هذا هو أن ذلك الرجل سيجد بالطبع لنفسه أنصارًا، فتلك هي طبيعة الإنسان. وهذا كله يرجع إلى سبب أشد ما يكون سخفًا وقد نتصوره نحن غير جدير بالذكر، ذلك هو أن الإنسان في كل مكان وزمان وأيًّا كانت مكانته قد آثر أن يعمل طبقًا لرغبته لا طبقًا لما يمليه عليه العقل والمصلحة. وقد يختار الإنسان نقيض مصالحه الخاصة. بل وفي بعض الأحيان ينبغي عليه أن يفعل ذلك بلا ريب (ذلكم هو رأيي). فاختيار الإنسان الحر غير المقيد وهواه الخاص - مهما كان طائشًا متهورًا - وخيال الإنسان الذي يبلغ أحيانًا حد الجنون هو بالذات "تلك المصلحة ذات النفع الأعظم" التي تجاهلناها والتي لا تدخل في أي ترتيب أو تصنيف والتي لا تفتأ تتحطم على صخرتها كل الأنظمة

والنظريات فتتحول إلى ذرات تذروها الرياح. وما الذي يدري هؤلاء الناس من أدعياء العلم والفلسفة أن الإنسان يريد أن يكون اختياره طبيعيًّا فاضلًا؟ إن ما يريده الإنسان لا يعدو أن يكون اختيارًا مستقلًّا مهما كلفه هذا الاستقلال وأنَّى قاده. أما الاختيار طبعًا فالشيطان وحده هو الذي يعلم على أي أساس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامِنُ

ولكنكم ستقاطعونني بقولكم ضاحكين: "ها ها ها! غير أنك تعرف أنه ليس هناك في الحقيقة شيء اسمه اختيار. ولتقل في ذلك ما تشاء. فقد نجح العلم حتى الآن في تحليل الإنسان بحيث أصبحنا نعلم فعلًا أن الاختيار وما يسمى بحرية الإرادة لا يعدوان أن يكونا..".
انتظروا يا سادتي فقد قصدت أن أبدأ بهذا أنا نفسي. ولكن أعترف أنه قد ساورني بعض الخوف. لقد أوشكت أن أقول إن الشيطان وحده هو الذي يعلم على أي أساس يقوم الاختيار وربما كان ذلك شيئًا طيبًا جدًّا ولكنني تذكرت تعاليم العلم.. وكبحت جماح نفسي. وها أنتم قد بدأتم مناقشة الموضوع. والحق أنه إذا أمكن حقًّا في يوم من الأيام اكتشاف قاعدة لجميع رغباتنا وأهوائنا، أي اكتشاف تفسير لما تقوم عليه هذه الرغبات والقوانين التي تنشأ بمقتضاها وكيف تتطور وما الذي تهدف إليه في كل حالة، أي اكتشاف قاعدة رياضية حقيقية، لأصبح حينئذ من المحتمل جدًّا أن يتوقف الإنسان فورًا عن الشعور بالرغبة. بل إن حدوث ذلك الشيء مؤكد. فمن ذا الذي يريد أن يكون اختياره بناءً على قاعدة؟ وفضلًا عن هذا فإنه سيتحول فورًا من كائن بشري إلى صمام في أرغن أو شيء من هذا القبيل. إذ ما الإنسان بلا رغبات وبلا إرادة حرة وبلا اختيار؟ إنه لا يعدو أن يكون صمامًا في أرغن. ماذا ترون؟ فلنحسب الاحتمالات، هل يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء أم لا؟
ستقولون: "إن اختيارنا يخطئ عادة لأننا لا ندرك مصلحتنا على حقيقتها. فقد نختار أحيانًا شيئًا بالغ السخف لأننا نرى بحماقتنا أنه أسهل الوسائل لتحقيق مصلحة مفترضة. ولكن عندما يفسر كل ذلك ويوضع على الورق (وهو أمر ممكن تمامًا فمن المهانة والعبث أن نفترض أن الإنسان لن يفهم بعض قوانين الطبيعة). فلا شك أن ما يسمى بالرغبات لن يكون له وجود. لأنه إذا ما نشب نزاع بين إحدى الرغبات وبين العقل فحينئذ سنحكم العقل لا الرغبة إذ أنه من المحال ونحن نحتفظ بعقولنا أن نكون غير عقلاء أمام رغباتنا فنعمل عن وعي ضد العقل ونرغب في إيذاء أنفسنا، ولمَّا كان من الممكن حساب كل اختيار وتعقل - إذ أنه ستكتشف في يوم ما قوانين ما يسمى بإرادتنا الحرة - فسيكون لدينا - بلا مزاح - في يوم ما جدول خاص بها بحيث يمكن حقًّا أن يكون اختيارنا متفقًا مع هذا الجدول. فإذا ما أثبت لي الاختيار والتعقل في يوم ما مثلًا أنني قد بدرت مني حركة تنم عن احتقاري لشخص ما لأنني لم يسعني إلا أن أفعل ذلك، بل ووجدتني مضطرًّا إلى أداء تلك الحركة بهذه الطريقة بالذات، فما هي الحرية التي تركت لي إذن وبخاصة إذا كنت رجلًا متعلمًا وحاصلًا على درجة علمية من مكان ما؟ إذن فسأكون قادرًا على

حساب حياتي كلها مقدمًا مدة ثلاثين عامًا. وخلاصة القول إنه إذا أمكننا عمل ذلك فلن يتبقى لنا شيء نفعله. وعلى أية حال فعلينا أن نفهم هذا. كما ينبغي أن نكرر لأنفسنا بلا ملل أن الطبيعة في وقت معين وفي ظروف معينة لا تستأذننا وإننا يجب أن نأخذها كما هي لا أن نحاول تشكيلها لتناسب خيالنا، وإذا كنا حقيقة نطمح في الوصول إلى قواعد وجداول بل حتى.. في الوصول إلى أنبوبة اختبار فليس في وسعنا إلا أن نقبل أنبوبة الاختبار أيضًا وإلا فستقبل دون موافقتنا..

نعم، ولكنني سأتوقف هنا! ومعذرة يا سادتي لمغالاتي في التفلسف، فهذه نتيجة أربعين سنة في عالمي السفلي! فدعوني أغرق في خيالي. أنتم ترون يا سادتي أن العقل شيء ممتاز ولا جدال في هذا، ولكن العقل لا يعدو أن يكون عقلًا ولا يرضي إلا الجانب العقلي من طبيعة الإنسان، في حين أن الإرادة هي مظهر الحياة كلها، أقصد الحياة البشرية كلها بما في ذلك العقل وجميع النوازع الأخرى. وإذا كانت حياتنا في مظهرها الإرادي هذا غالبًا ما تكون غير ذات قيمة فإنها مع ذلك حياة وليست مجرد استخراج جذور تربيعية. فها أنذا مثلًا بطريقة طبيعية للغاية أردت أن أعيش لإرضاء جميع قدراتي على الحياة لا قدرتي على التفكير فحسب، تلك القدرة التي لا تزيد على جزء يسير من قدرتي على الحياة. فماذا يعرف العقل؟ إنه لا يعرف إلا ما نجح في تعلمه (وهناك بضعة أشياء قد لا يتعلمها مطلقًا. قد تؤلمنا هذه الحقيقة ولكن لا بد أن يصرح بها) على حين تعمل الطبيعة البشرية كمجموع بكل ما فيها من قدرات عن وعي أو غير وعي وهي تحيا وتعيش حتى ولو كانت مخطئة. أظنكم يا سادتي تنظرون إليَّ في رثاء وتقولون لي مرة أخرى إن الإنسان المستنير المتطور أو باختصار الإنسان كما سيكون عليه في المستقبل لا يمكن أن يرغب عن وعي في شيء يضيره وأن ذلك يمكن إثباته رياضيًّا. وأنا أوافق على هذا تمامًا إذ أن ذلك في الإمكان، بواسطة الرياضيات.

ولكنني أعود فأقول للمرة المئة إن هناك حالة واحدة، واحدة فقط قد يرغب فيها الإنسان عن وعي وعمد فيما يضيره وفيما هو سخيف كل السخف، وذلك لكي يكون له الحق في أن يرغب لنفسه ولو كان ما يرغب فيه سخيفًا، وحتى لا يكون ملزمًا بأن يرغب فيما هو معقول فحسب. ولا شك أن هذا الشيء السخيف في ذاته، وأن نزوتنا تلك قد تكون في الحقيقة يا سادتي أجدى لنا من أي شيء في الوجود، وبخاصة في حالات معينة. وقد تكون بالذات أجدى لنا من أية مصلحة حتى ولو كانت تلحق بنا أذًى واضحًا وحتى لو تنافت مع أسلم نتائج تفكيرنا فيما يخص مصلحتنا، لأنها تحتفظ لنا في أية ظروف بما هو أثمن وأهم من كل شيء ألا وهو شخصيتنا وفرديتنا. فأنتم ترون أن البعض يعتقد أن هذا أثمن في الحقيقة من كل شيء للجنس البشري ولا ريب أن الاختيار يمكن إذا شاء أن يكون متفقًا مع العقل وبخاصة إذا لم يسئ المرء استخدامه، وكان في حدود معينة. إنه في هذه الحال يعود بالفائدة بل أحيانًا

يستحق الثناء. ولكن الاختيار في الغالب بل في الأغلب يتنافى مع العقل تنافيًا تامًّا متواصلًا.. و.. و.. هل تعلمون أن هذا أيضًا يعود بالفائدة بل يكون أحيانًا جديرًا بالثناء؟ فلنفترض يا سادتي أن الإنسان ليس غبيًّا. (ولا شك أنه لا يمكن رفض هذا الفرض وذلك لاعتبار واحد هو أن الإنسان إذا كان غبيًّا، إذن فمن هو العاقل الحكيم؟) ولكنه إذا لم يكن غبيًّا فهو جحود بصورة بشعة! جحود إلى أقصى حد! وفي رأيي أن خير تعريف للإنسان أنه مخلوق جحود ذو ساقين. ولكن ليس هذا كل شيء. ليس هذا شر عيوبه بل إن شر عيوبه هو انحرافه الخلقي الدائم، الدائم منذ زمن الطوفان حتى عهد شلزويج وهو لشتين.

أقول انحرافه الخلقي، وبالتالي افتقاره إلى الإدراك السليم فإنه من المتفق عليه منذ زمن طويل أن الافتقار إلى الإدراك السليم لا يرجع إلا إلى سبب واحد هو الانحراف الخلقي. فلتفحصوا هذه القضية ولتنظروا في تاريخ الجنس البشري. فماذا ترون؟ هل هو منظر عظيم؟ إنه عظيم إذا شئتم. فلتأخذوا مثلًا تمثال رودس الهائل. إنه يستحق كثيرًا من التفكير، ويشهد مستر أنيفسكي بأن بعض الناس يقولون إنه من صنع الإنسان، في حين يعتقد بعضهم أنه من خلق الطبيعة نفسها. وهل هذا التاريخ متعدد الألوان؟ قد يكون كذلك أيضًا. إذا أخذنا الأزياء الرسمية الموحدة - العسكرية والمدنية - لجميع الشعوب في جميع العصور - هذا وحده يستحق شيئًا كثيرًا من التفكير – أما إذا أخذتم الأزياء العادية الموحدة فلن تفرغوا منها أبدًا. ولا يمكن لأي مؤرخ أن يقوم بهذا العمل. وهل هذا التاريخ ممل؟ قد يكون مملًّا أيضًا: إنه قتال وقتال. فهم يقاتلون الآن وقد قاتلوا أولًا وقاتلوا أخيرًا، إنكم ستعترفون بأنه يكاد يكون مملًّا للغاية. وخلاصة القول إن الإنسان يستطيع أن يصف تاريخ العالم بأي شيء، أي شيء يمكن أن يتمشى مع أشد الأخيلة اضطرابًا وفوضى.

والشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نقوله هو أنه معقول. فهي كلمة تقف في الحلق. ومع ذلك فهناك شيء عجيب يحدث دائمًا هو أنه لا يفتأ يظهر في الحياة أخلاقيون حكماء ومحبون للإنسانية ممن يجعلون هدفهم طيلة حياتهم أن يعيشوا متمسكين بالأخلاق والعقل ما استطاعوا ليكونوا نورًا يهتدي به جيرانهم إن صح هذا التعبير لا لشيء إلا ليثبتوا لهم أنه من الممكن أن يعيش الإنسان متمسكًا بالأخلاق والعقل في هذا العالم. ومع ذلك فنحن نعلم عاجلًا أو آجلًا أن هؤلاء بعينهم كانوا يخدعون أنفسهم وأنهم كانوا يمارسون لعبة غريبة، شائنة في أغلب الأحيان. والآن أسألكم: ماذا يمكن أن نتوقع من الإنسان ما دامت الطبيعة قد وهبته مثل هذه الصفات الغريبة؟ فلتمطروه بكل ما في الكون من نعم ولتغرقوه في بحر من السعادة حتى لا يمكن أن يرى فوق السطح إلا فقاعات من النعيم، ولتمنحوه رخاءً اقتصاديًّا حتى لا يكون لديه ما يفعله إلا أن ينام ويطعم ويشغل نفسه ببقاء نوعه، فسوف تجدونه بدافع من مجرد الجحود والحقد يُخيِّب أملكم بصورة مؤلمة. إنه ليخاطر بطعامه ويرغب عامدًا في أشد النفايات فتكًا وأكثر الحماقات إسرافًا،

لا لسبب إلا ليدخل في كل هذه الحياة الطيبة عنصره الخيالي المهلك. إنه لن يرغب في الاحتفاظ إلا بأحلامه الخيالية وحماقته المبتذلة حتى يثبت لنفسه فحسب (وكأن ذلك من الضرورة بمكان) أن الناس ما زالوا أناسًا لا مفاتيح بيان تهدد قوانين الطبيعة بالتحكم فيها تمامًا بحيث لا يستطيع الإنسان في النهاية أن يرغب في شيء إلا طبقًا لجداول معينة. وليس هذا هو كل شيء. فلو أن الإنسان لم يكن في الحقيقة إلا مفتاح بيان ولو أن هذا وقد ثبت له بالعلوم الطبيعية والرياضيات فلن يسير - حتى بعد ذلك - بمقتضى العقل بل سوف يرتكب الخطأ عن عمد بدافع من جحوده فحسب لكي يحقق هدفه. وإذا لم يجد الوسيلة إلى هذا فإنه سيدبر الدمار والفوضى ويخلق لنفسه شقاء من كل لون لا لشيء إلا ليحقق هدفه! إنه سوف يستنزل اللعنات على العالم. ولمَّا كان الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يلعن (فهذا هو امتيازه وهو أول ما يميزه عن الحيوانات الأخرى) فقد يحقق غرضه بلعناته وحدها، أي قد يقنع نفسه بأنه إنسان لا مفتاح بيان! وإذا قلتم إن كل هذا أيضًا يمكن حسابه وإدخاله في جداول - الفوضى والظلام واللعنات بحيث يكون مجرد إمكان حسابها مقدمًا وسيلة لمنعها جميعًا، ويعود العقل إلى تأكيد ذاته - فإن الإنسان حينئذ قد يسلم نفسه عمدًا للجنون لكي يتخلص من العقل ويحقق هدفه! إني أؤمن بهذا وأتحمل مسؤولية القول به فكل ما يقوم به الإنسان من عملٍ يبدو أنه في الحقيقة ينحصر في شيء واحد هو أن يثبت لنفسه في كل دقيقة أنه إنسان لا مفتاح بيان! قد يكون هذا على حساب حياته وقد يكون عن طريق الفتك بغيره من الناس وإذا كان الأمر كذلك، فهل يسعنا إلا أن نبتهج لأن ذلك لم يحدث بعد وأن الرغبة ما زالت تتوقف على شيء لا نعلمه؟

ستصرخون في وجهي (هذا إذا تنازلتم بذلك) قائلين إن أحدًا لا يمس إرادتي الحرة وأن كل ما يهمهم هو أن تتفق إرادتي من تلقاء ذاتها وباختيارها الحر مع مصالحي الطبيعية الخاصة ومع قوانين الطبيعة والحساب.

يا للسماء أيها السادة! ماذا ينبغي من الإرادة الحرة عندما نصل إلى الجداول والحساب وعندما ينحصر كل شيء في مسألة (اثنان مضاعفة تساوي أربعة؟) إن اثنين مضاعفة تساوي أربعة دون إرادتي. كأنما إرادتي الحرة قد أرادت ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

أيها السادة إني أمزح وأنا أعلم أن نكاتي ليست لماحة. ولكنكم تعلمون أننا لا نستطيع أن نأخذ كل شيء على محمل المزاح. وربما كنت أمزح على خلاف مشربي. أيها السادة تعذبني بضعة أسئلة: فلتجيبوا لي عنها. فأنتم مثلًا تريدون أن تشفوا الناس من عاداتهم القديمة وتصلحوا من إرادتهم طبقًا للعلم والإدراك السليم. ولكن كيف تعلمون أن إصلاح الإنسان على هذه الصورة أمر ممكن أو مرغوب فيه؟ وما الذي يجعلكم تقررون أن ميول الإنسان في حاجة إلى إصلاح؟ وخلاصة القول كيف تعلمون أن مثل هذا الإصلاح سيعود بالنفع على الإنسان ولنتعمق في الموضوع فأسألكم عن السبب في اقتناعكم الراسخ بأن عدم العمل ضد مصالح الإنسان الحقيقية الطبيعية التي كفلها ما وصل إليه العقل والحساب من نتائج يكون دائمًا وبلا ريب في مصلحة الإنسان بل ينبغي أن يكون دائمًا قانونًا للجنس البشري. إنكم تعلمون أن هذا هو افتراضكم فحسب حتى الآن. قد يكون ذلك هو قانون المنطق ولكنه ليس قانون الإنسانية. قد يدور بخلدكم أيها السادة أنني معتوه؟ فاسمحوا لي أن أدافع عن نفسي. إني أوافق على أن الإنسان في المحل الأول حيوان خلاق مقدر له أن يسعى عن وعي وإدراك وراء هدف معين وأن يشتغل بالهندسة، أي يظل دائمًا وأبدًا يبني طرقًا جديدة أيًّا كانت نهايتها. ولكن قد يكون سبب انحرافه فجأة عن طريقه الطبيعي هو أنه على وجه التحديد قد قدر له أن يبني الطريق وقد يكون أيضًا لأن الإنسان الواقعي العملي مهما كانت حماقته يخطر على باله أحيانًا أن الطريق يؤدي في الأغلب إلى غاية ما وأن هذه الغاية أقل شأنًا من عملية بنائه وأن أهم ما في الموضوع هو إنقاذ (الطفل الطيب) من احتقار الهندسة حتى لا يستسلم للبطالة القاتلة التي نعلم جميعًا أنها أس الرذائل كلها. فالإنسان يجب أن يبني الطرق وأن يخلق. هذه حقيقة لا جدال فيها. ولكن لماذا نجده أيضًا مغرمًا إلى هذا الحد بالتدمير والفوضى! خبروني عن ذلك؟ ولكنني أريد أنا نفسي أن أقول بضع كلمات حول هذه المسألة. ألا يمكن أن يرجع حبه للفوضى والتدمير (إذ لا جدال في أنه أحيانًا يحب ذلك) إلى خوفه الغريزي من تحقيق هدفه وإتمام الصرح الذي يبنيه؟ ومن يعلم فقد يكون حبه لهذا الصرح من بعد فحسب وقد لا يشعر مطلقًا بهذا الحب من مكان قريب وقد يكون مغرمًا ببنائه فحسب ولكنه لا يريد أن يعيش فيه، بل سيتركه عندما يتم بناؤه لتستخدمه الحيوانات الأليفة Les animaux domestiques، مثل النمل والغنم وما إلى ذلك. والنمل الآن له ذوق مختلف تمامًا. فإن له صرحًا رائعًا من ذلك الطراز الذي يدوم إلى الأبد.. تل النمل.

فتلّ النمل هو أول ما بدأ به جنس النمل المحترم وجوده وقد يكون آخر شيء ينتهي به مما يوحي بأعظم الثقة في مثابرته وإدراكه السليم. أما الإنسان فهو مخلوق طائش متناقض وربما شابه لاعب الشطرنج الذي يهوى اللعبة في حد ذاتها لا نتيجتها. ومن يدري (فليس ثمة قول مؤكد) ربما كان هدف الجنس البشري الوحيد في الوجود ينحصر في ذلك السعي المتواصل لتحقيقه أو بعبارة أخرى ينحصر في الحياة نفسها لا في الهدف الذي يجب تحقيقه وهو ما يجب التعبير عنه دائمًا بأنه قانون حتمي كاثنين مضاعفة تساوي أربعة ومثل هذه الحتمية يا سادتي ليست هي الحياة ولكنها بداية الموت. وعلى أية حال فالإنسان يخشى دائمًا هذه الحقيقة الرياضية وأخشاها أنا الآن. فمن المسلم به أن الإنسان لا عمل له إلا البحث عن هذه الحقيقة الرياضية فهو يعبر المحيطات ويضحي بحياته في البحث عنها ولكنني أؤكد لكم أنه يخشى النجاح والعثور عليها حقيقة. فهو يشعر أنه إذا ما وجدها فلن يتبقى لديه ما يبحث عنه. عندما يفرغ العمال من عملهم فهم على الأقل يتقاضون أجرهم ويذهبون إلى الحانة ثم يقتادون إلى مركز الشرطة، وهناك يجدون عملًا مدة أسبوع. ولكن أين يمكن أن يذهب الإنسان؟ وعلى أية حال فمن الممكن أن نلاحظ أن الإنسان يعتريه نوع من الارتباك عندما يحقق مثل هذه الأهداف. فهو يهوى السعي لتحقيق الهدف ولكنه لا يهوى تمامًا أن يحققه وهذا بالطبع أمر شديد السخف. والإنسان في الواقع مخلوق هزلي. إذ يبدو أن هناك نوعًا من المزاح في الموضوع كله. ومع ذلك فإن الحقيقة الرياضية الثابتة هي قبل كل شيء أمر لا يمكن احتماله. ويبدو لي ان اثنين مضاعفة تساوي أربعة لا تعدو أن تكون صلافة ووقاحة. إن (اثنين مضاعفة تساوي أربعة) هي شخص مغتر وقح يقف معترضًا طريقك واضعًا راحتيه في خصره وهو يبصق على الأرض. إني أقر أن (اثنين مضاعفة تساوي أربعة) شيء ممتاز ولكننا إذا أعطينا لكل شيء حقه فإن (اثنين مضاعفة تساوي خمسة) قد تكون في بعض الأحيان أيضًا شيئًا أخَّاذا حقًّا.

وفيم اقتناعكم الثابت المظفر بأن الأمر الطبيعي الحتمي وحده - وبعبارة أخرى ما يؤدي إلى الخير فحسب - هو في مصلحة الإنسان؟ ألا يكون العقل مخطئًا فيما يخص المصلحة؟ أليس من المحتمل أن يكون ثمة ما يستهوي الإنسان بجانب الخير والرفاهية؟ فقد يستهويه الألم كما يستهويه الخير، وقد يعود الألم بقدر ما يعود عليه الخير من نفع عظيم؟ فالإنسان أحيانًا قد يشغف بالألم شغفًا غير مألوف. وهذه حقيقة. ولا حاجة بنا لأن نحتكم إلى تاريخ العالم لإثباتها. بل اسألوا أنفسكم إذا كنتم أناسًا وعرفتم الحياة على الإطلاق. أما عن رأيي الشخصي فيبدو لي أن حب الخير وحده هو بلا شك من سوء التربية. إذ أن تحطيم الأشياء سواء أكان أمرًا معيبًا أو محمودًا يبعث في النفس أيضًا في بعض الأحيان البهجة والسرور. أنا لا أدافع عن الألم أو الخير. بل أدافع.. عن أهِوائِي وعمَّا يكفلهاِ لي عند الضِرورة. فالألم لا يكون مناسبًا

في الفودفيل مثلَا. أعلم ذلك. كما أنه لا يمكن أن يخطر على بال في (قصر البللور). فالألم معناه الشك أو الإنكار وماذا تكون قيمة: (قصر البللور) إذا أمكن أن يحوم حوله أي شك؟ ومع ذلك فإني أعتقد أن الإنسان لن يتخلى عن الألم الحقيقي أي عن التخريب والفوضى. فالألم هو المنشأ الوحيد للوعي والإدراك. ومع أني أقررت فعلًا في بادئ الأمر أن الإدراك هو كارثة الإنسان الكبرى غير أني أعلم أن الإنسان يعلق عليه أهمية كبرى ولن يتخلى عنه لقاء أية مرضاة. فالإدراك مثلًا يفوق (اثنان مضاعفة تساوي أربعة) بمراحل لا نهاية لها. فالمرء إذا وصل إلى حقيقة رياضية ثابتة لا يبقى لديه ما يفعله أو يفكر فيه. لن يبقى أمامكم ألا أن تكبتوا حواسكم الخمس وتستغرقوا في التأمل. في حين أنكم إذا تمسكتم بالإدراك تستطيعون على الأقل حتى إذا ما وصلتم إلى نفس النتيجة، أن تجلدوا أنفسكم في بعض الأحيان مما يبعث فيكم الحياة على أية حال. والعقاب البدني على الرغم من رجعيته خير من لا شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العَاشِرُ

إنكم تؤمنون بقصر من البللور لا يمكن أن يتحطم، قصر لا يمكن لأي إنسان ألا يخرج له لسانه أو يضع يده خفية على أنفه احتقارًا. ولعل ذلك هو بالضبط ما يجعلني أخشى هذا الصرح إذ أنه من البللور ولا يمكن أن يتحطم ولا يمكن لأحد أن يخرج له لسانه حتى ولو خفية.

ولو لم يكن قصرًا بل حظيرة دجاج لتسللت إليه أتقي المطر ومع ذلك فلست أسمي حظيرة الدجاج قصرًا اعترافًا مني بالجميل لأنها حَمتني من المطر. ستضحكون مني وتقولون إن حظيرة الدجاج في مثل هذه الظروف تعادل قصرًا منيفًا. وأجيبكم قائلًا: نعم، إذا كان الإنسان لا يعيش إلا ليتقي المطر.

ولكن ما العمل إذا كنت قد أقنعت نفسي بأن هذا ليس الهدف الوحيد في الحياة وأنه إذا كان على الإنسان أن يعيش فالأجدر به أن يعيش في قصر منيف. هذا هو اختياري وتلك هي رغبتي. ولن تستطيعوا اقتلاعها من نفسي إلا إذا غيرتم ميلي الطبيعي. حسنًا فلتغيروه ولتغروني بشيء غيره ولتمنحوني مثلًا أعلى آخر. ولكنني في نفس الوقت لن أحسب حظيرة الدجاج قصرًا منيفًا. فقد يكون قصر البللور حلمًا تافهًا وقد يكون مناقضًا لقوانين الطبيعة وقد يكون من اختراعي الذي لا يدفعني إليه إلا غبائي وما اتصف به جيلي من عادات بالية سخيفة. ولكن ماذا يهمني إذا كان مناقضًا؟ لا أهمية لذلك ما دام موجودًا في رغباتي أو بالأحرى مادام وجوده مرتبطًا بوجود رغباتي. ربما ضحكتم مني مرة أخرى؟ فلتضحكوا. فخير عندي احتمال أية سخرية من التظاهر بالشبع وأنا جائع. وإني أعرف على أية حال أنه لا يمكن مراوغتي بحل وسط، بصفر دائر لمجرد أنه يتفق مع قوانين الطبيعة وأن له وجودًا في الواقع. لن أقبل أن تتوج رغباتي بمجمع من المباني ذي مساكن للفقراء بعقد إيجار لمدة ألف عام وربما علقت عليه لافتة طبيب أسنان. فلتحطموا رغباتي ولتجتثوا مثلي ولتروني طريقًا أفضل وسوف أتبعكم. فقد تقولون إن ذلك لا يستحق ما تتجشمونه من مشقة ولكني في هذه الحال أستطيع أن أردد نفس الإجابة. إننا نناقش الأمور بشكل جدي فإذا لم تتفضلوا بأن تعيروني اهتمامكم فسأتخلى عن معرفتكم ويمكنني أن أنسحب إلى جحري السحيق في عالمي السفلي.

ولكنني ما دمت على قيد الحياة ولي رغبات فإني أفضل أن تشل يدي على أن أحضر حجرًا واحدًا لمثل هذا البناء! لا تذكروني بأنني قد نبذت قصر البللور منذ لحظات لا لشيء إلا لأن الإنسان لا يستطيع أن يخرج له لسانه. فأنا لم أقل إنني شديد الشغف بإخراج لساني. بل ربما كان ما أكرهه أن صروحكم جميعًا لا يوجد بينها صرح واحد لا يستطيع الإنسان أن يخرج له لسانه. وأنا على العكس مستعد أن يقطع لساني اعترافًا مني بالجميل إذا أمكن وضع

الأمور على صورة تجعلني أفقد كل رغبة في إخراج لساني. وليس خطئي أن الأمور لا يمكن وضعها على هذا النحو وأن الإنسان يجب أن يقنع بشقق نموذجية. إذن فلماذا خلقت فيَّ مثل هذه الرغبات؟ وهل من الممكن أن يكون تكويني لغرض واحد هو أن أتحقق أنه بأسره غش وخداع؟ هل يمكن أن يكون هذا هو كل الهدف من تكويني؟ لا أعتقد ذلك.

ولكن أتعلمون ما هي الحقيقة؟ إني مقتنع بأننا نحن أهل العالم السفلي ينبغي أن يكبح جماحنا. فعلى الرغم من أننا قد نمكث أربعين سنة في عالمنا السفلي في صمت دائم فإننا إذا ما خرجنا إلى ضوء النهار وأفلت قيادنا فإننا لا نفتأ نتكلم ونتكلم ونتكلم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

وخلاصة القول يا سادتي أنه من الأفضل ألا نفعل شيئًا! ومن الأفضل أن نكون في جمود مدرك واعٍ! وهكذا فليحيا العالم السفلي! ومع أنني قلت إني أحسد الرجل الطبيعي إلى آخر قطرة من عصارة مرارتي فإني لا أحب أن أكون في مكانه (وإن كنت سأظل مع ذلك أحسده) لا. لا،إن حياة العالم السفلى على أية حال خير وأفضل. فهناك على الأقل يستطيع الإنسان... أوه، ولكن أراني أكذب حتى في هذه اللحظة. إني أكذب لأني أعرف أنا نفسي أن الأفضل ليس هو العالم السفلي بل شيء آخر يختلف تمام الاختلاف تهفو نفسي إليه ولكنني لا أستطيع العثور عليه! فلتنزل اللعنة بالعالم السفلي!

سأقول لكم شيئًا آخر، خيرًا من هذا: هل أؤمن بشيء مما كتبته الآن. وأقسم لكم أيها السادة أنني لا أؤمن حقًّا بشيء واحد أو كلمة واحدة مما دونته، أقصد أنني ربما كنت مؤمنًا بما قلت ولكنني أشعر في نفس الوقت بل وأظن أني كذاب أشر. ستسألونني، إذن فلماذا كتبت كل هذا؟

فأجيبكم قائلًا: ينبغي أن أضعكم في العالم السفلي مدة أربعين عامًا دون أن تفعلوا شيئًا ثم أجيئكم هناك زائرًا لأرى إلى أية مرحلة وصلتم! كيف يمكن أن يترك إنسان دون عمل مدة أربعين عامًا؟

قد تقولون لي وأنتم تهزون رؤوسكم احتقارًا (أليس هذا شأننا؟ أليس هذا مهينًا؟ أنك تتلهف على الحياة وتحاول أن تحل مشاكل الحياة بتعقيد منطقي. ولشد ما توالت هجماتك السليطة اللاذعة ولشد ما كنت في نفس الوقت خائفًا مذعورًا، فإنك تقول هراء وتطرب له. وتلفظ عبارات وقحة وتظل في ذعر دائم معتذرًا عما قلت. فأنت تعلن أنك لا تخشى شيئًا وتحاول في نفس الوقت أن تسترضينا ليحسن رأينا فيك. وتعلن أنك تصر على أسنانك وتحاول في نفس الوقت أن تكون فكهًا ذكيًّا حتى تروِّح عنا. وأنت تعلم أن نكاتك ليست لماحة ولكن يبدو أنك راضٍ تمامًا عن قيمتها الأدبية. فربما تكون قد عانيت حقًّا ولكنك لا تكن أي احترام لما عانيت من آلام. قد تكون مخلصًا ولكنك لست متواضعًا فإنك تكشف عن إخلاصك وتفضحه لأقل باعث من بواعث الزهو والكبرياء. لا شك أنك تقصد أن تقول شيئًا ولكنك تحجم عن النطق بآخر كلمة لخوفك، ولأنك لا تملك ما يكفي من العزم والتصميم لكي تنطق بها وكل ما تملكه هو وقاحة هيابة. إنك تفاخر بالوعي ولكنك لست واثقًا من حجتك فعلى الرغم من نشاط عقلك فإن قلبك معتم فاسد. ولا يمكن أن يتأتى لك إدراك كامل أصيل دون أن يكون لك قلب طاهر ناصع. ولشد ما تتطفل ولشد ما تصر ولشد ما يتجهم وجهك. أكاذيب. أكاذيب. أكاذيب.

لا ِشك أنني اصطنعت كل ما تقولون. ومبعث هذا أيضًا عالمي السفلي. لقد ظللت هناك أربعين عامًا أنصت لكم من خلال شق في الأرض. لقد اختلقت

هذه الأشياء أنا نفسي إذ لم يكن هناك ثمة شيء آخر أستطيع اختلاقه. فلا عجب إن كنت قد حفظتها عن ظهر قلب ثم اتخذت بعد ذلك شكلًا أدبيًّا..
ولكن هل يمكن أن تكونوا حقيقة من السذاجة بحيث يدور بخلدكم أنني سأطيع كل هذا وأعطيكم إياه لتقرؤوه أيضًا؟ وثمة مشكلة أخرى فلماذا أسميكم (سادة) ولماذا أخاطبكم كما لو كنتم حقيقة قرائي؟ إن مثل هذه الاعترافات التي أنتوى أن أدلي بها لا تطبع مطلقًا ولا تعطى لغيري من الناس لقراءتها. وعلى أية حال فليس لديَّ من رجاحة العقل ما يكفي لهذا ولا أرى لماذا يجب أن أكون كذلك. ولكن خاطرًا مر بذهني وأريد أن أحققه مهما كان الثمن. دعوني أفسر لكم ذلك.
إن كل إنسان له من الذكريات ما لا يقوله لكل شخص بل لأصدقائه فحسب. كما أن هناك مسائل أخرى في ذهنه لا يفصح عنها حتى لأصدقائه بل لنفسه فقط. ويكون ذلك في الخفاء.. ولكن هناك أشياء أخرى يخشى الإنسان أن يقولها حتى لنفسه.. وكل رجل مهذب لديه قدر معين من هذه الأشياء يختزنه في عقله. وكلما زاد تهذيبه عظم مقدار هذه الأشياء في ذهنه. وعلى أية حال فقد صح عزمي أخيرًا على أن أتذكر بعض مغامراتي القديمة. لقد ظللت أتجنبها دائمًا في شيء من الضيق حتى هذه اللحظة. أما الآن فإني لا أتذكرها فحسب، بل لقد صح عزمي فعلًا على كتابتها. أريد أن أجرب إذا كان في استطاعة المرء أن يكون حتى مع نفسه صريحًا كل الصراحة ولا يعتريه الخوف لرؤية الحقيقة الكاملة. وسوف ألاحظ وأذكر في هذا المقام ما يقوله هايني من أن ترجمة الكاتب لحياة على صورة صادقة تكاد تكون ضربًا من المحال وأن الإنسان لا بد أن يكذب عندما يتحدث عن نفسه. وهو يعتقد أن روسو في اعترافاته قد روى حتمًا الأكاذيب عن نفسه بل إنه قد كذب عمدًا بدافع من كبريائه. وإني مقتنع أن هايني على حق. فأنا أدرك تمامًا كيف أن الإنسان أحيانًا بدافع من كبريائه وحدها قد ينسب إلى نفسه جرائم لا شك فيها. إني أستطيع حقًّا أن أدرك تمامًا هذا اللون من الكبرياء. ولكن حكم هايني ينطبق على أولئك الذين يدلون باعترافاتهم للجمهور. أما أنا فإني أكتب لنفسي فحسب وأريد أن أقرر بما لا يحتمل اللبس أني إذا كنت قد كتبت كما لو كنت أخاطب القراء فما ذلك إلا لأنه أيسر لي أن أكتب بهذا الشكل. إنه شكل، شكل أجوف، فلن يكون لي قراء لقد أوضحت هذه النقطة من قبل..
ولا أريد أن تعوقني أية قيود في تجميع مذكراتي. فلن أتبع أي نظام أو طريقة. بل سأدون الأشياء كما أتذكرها.
ولكن هنا قد يتلقف شخص ما هذه العبارة ويسألني قائلًا: إذا كنت حقًّا لا تعتمد على القراء فلماذا تقطع على نفسك مثل هذه التعهدات - وعلى الورق أيضًا - أي أنك لن تتبع نظامًا معينًا أو طريقة معينة وأنك ستدون الأشياء كما تذكرها وما إلى ذلك؟ وما إلى ذلك؟ لماذا تفسر؟ لماذا تعتذر؟
حسنًا هأنذا أجيبكم.

هناك حالة نفسية كاملة في كل هذا. قد لا يعدو الأمر أن أكون جبانًا. وربما كنت أتخيل عمدًا وجود جمهور أمامي حتى أكون أكثر وقارًا وأنا أكتب. وربما كانت هناك آلاف من الأسباب. وأعود فأسأل ما هو هدفي بالضبط من الكتابة؟ إذا لم يكن ذلك لفائدة الجمهور فلم لا أذكر هذه الأحداث في ذهني فحسب دون أن أدونها على الورق؟

هذا صحيح. ولكنها تكون أكثر مهابة وهي على الورق. وتكون أقدر على التأثير. كما أنني سأكون أقدر على نقد نفسي وتحوير أسلوبي. وفضلًا عن ذلك فإنني قد أجد في الكتابة راحة فعلية. فاليوم مثلًا تلح عليَّ إحدى ذكريات الماضي البعيد. لقد عاودتني هذه الذكرى في وضوح منذ بضعة أيام وظلت تطاردني كلحن مزعج لا يستطيع الإنسان التخلص منه. ومع ذلك فيجب أن أتخلص منها بطريقة ما. فلديَّ مئات من هذه الذكريات ولكن يحدث في بعض الأحيان أن تنبري لي إحداها وتلاحقني. وأعتقد لسبب ما أنني إذا ما دونت هذه الذكرى فسوف أتخلص منها. فلم لا أحاول ذلك؟

وفضلًا عن هذا، فإني أشعر بالملل وليس لديَّ مطلقًا ما أفعله وستكون الكتابة إذن نوعًا من العمل. يقولون إن العمل يجعل الإنسان طيب القلب أمينًا. حسنًا فهذه فرصة تسنح لي على أية حال.

الثلج يتساقط اليوم أصفر قذرًا. وقد سقط الثلج أمس أيضًا ومنذ بضعة أيام. يخيل إليَّ أن ذلك الثلج المبتل هو الذي ذكرني بذلك الحادث الذي لا يمكنني التخلص منه الآن. وهكذا فلتكن قصتي بمناسبة الثلج المتساقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجُزءُ الثانِي

"بمناسبة الثلج المتساقط"
عندما انبعثت كلماتي المنذرة
من ظلمة استعباد الضلال
وأطلقت من ربقة الأسر روحك الخائرة
تلوَّيت من الكرب والحزن
وتذكرت إغراقك في الزلل
فتلفظت بالسب والطعن
وعندما اكتوى ضميرك الناعس
بنار الذكرى المعذبة
كشفت لي إطار حياتك التاعسي
قبل مجيئي لأراقبه
عندئذ رأيتك فجأة تسقم
وتخفي وجهك الأقتم
في نفور وجنون وفزع
لذكريات خزي متضع

نكراسوف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأوَّل

لم أكن أتجاوز حينذاك الرابعة والعشرين، غير أن حياتي كانت قاتمة مضطربة مقفرة كحياة الهمجي المتوحش. فقد تحاشيت الأصدقاء وتجنبت الحديث مع الناس في عناد وإصرار وأمعنت في إخفاء نفسي في ذلك الجحر الذي كنت أعيش فيه. أما في مكتبي أثناء العمل فلم أكن أنظر إلى أحد قط كما كنت أدرك تمامًا أن رفاقي لا يعدونني شخصًا غريب الأطوار فحسب بل كانوا ينظرون إليَّ كما كنت أتخيلهم دائمًا في شيء من الازدراء والنفور. وكنت أعجب أحيانًا لماذا لا يتخيل أحد سواي أنه بغيض إلى الناس. فقد كان بين الكتبة موظف ذو وجه قبيح كل القبح شوهه الجدري وتبدو عليه النذالة والخبث في وضوح أكيد حتى اعتقدت أنني ما كنت أتجاسر على مواجهة الناس لو كان لي مثل هذا الوجه الدميم. وثمة كاتب آخر كان يرتدي عتيقا بالغ القذارة تنبعث منه على مقربة رائحة كريهة. ومع ذلك فلم يبدُ على أحدهما أقل شعور بالحرج من ملبسه أو خلقته أو شخصيته على صورة من الصور. بل لم يخطر ببال أحدهما قط أنه مبعث اشمئزاز أو نفور. بل إنهما لو تصورا ذلك لما علَّقا عليه أهمية ما، ما دام رؤساؤهما لا ينظرون إليهما تلك النظرة. ولقد اتضح لي الآن أن كبريائي التي لا تعرف حدودًا ومثلي العليا التي نصبتها لنفسي كثيرًا ما جعلتني أنظر إلى نفسي في سخط شديد كاد يبلغ حد الكراهية. وخيل إليَّ أن الجميع يشعرون نحوي شعوري نحو نفسي. فكنت مثلًا أبغض خلقتي وأتصور أنها منفِّرة بل كان يخامرني الظن أن في تعبيرها ما ينم عن الخسة. وكنت كل يوم عندما أذهب إلى مكتبي أحاول الابتعاد عن زملائي ما أمكن، وأتكلف الكبرياء والترفع حتى أبعد عن نفسي مظنة الضعة والمذلة. وكنت أحدث نفسي قائلًا: "حقًّا إن وجهي دميم ولكن ليكن مع ذلك مترفعًا قوي التعبير يشف عن ذكاء خارج لماح". ولكنني كنت على ثقة مريرة مؤلمة بأن وجهي لن يستطيع التعبير عن هذه الصفات. وأدهى من ذلك كله أنني كنت أتمثل فيه الغباء بالفعل، فلو أنني استطعت أن انطبع بسمات الذكاء وحده لرضيت غاية الرضى. والواقع أنني كنت أستطيع أن أحتمل ما يبدو على وجهي من الخسة والضعة لو رأى الناس فيه مظاهر ذكاء يانع.

لا شك أنني كرهت زملائي الكتبة جميعًا واحتقرتهم ولكنني أحسست في نفس الوقت وكأني أخشاهم. وقد كنت أحيانًا أظنهم خيرًا مني وينتابني هذا الشعور بطريقة مفاجئة فأتردد بين احتقارهم وبين اعتبارهم أرفع شأنًا مني. ولا يستطيع رجل مثقف مهذب أن يصطنع الكبرياء ما لم يكن قد نصب لنفسه مثلًا بالغ السمو يدفعه في بعض اللحظات. إلى ازدراء نفسه والنقمة عليها. ومع ذلك فسواء احتقرت هؤلاء الناس أو خلتهم خيرًا مني فإنني كنت لا أفتأ أغض الطرف في كل مرة ألتقي فيها بواحد منهم حتى صرت أمتحن قدرتي

على الثبوت لنظرات أي شخص منهم فأجدني دائمًا أول من يغض الطرف. فتأخذني الحيرة وينتابني الذهول. ولشد ما كان يخيفني أن أكون مثارًا للسخرية. فحرصت على مراعاة التقاليد في مظهري واستعبدني شغف شديد بها. وأحببت السير في الطريق المطروق. كما كنت أرتعد رعبًا من كل شذوذ في نفسي. ولكن كيف يمكن أن يدوم هذا؟ كنت مرهف الحس إلى حد المرض كما ينبغي أن يكون كل رجل في عصرنا في حين أن زملائي جميعًا كانوا أغبياء لا يختلف أحدهم عن الآخر كقطيع من الغنم. وربما كنت الوحيد بينهم الذي يتخيل نفسه عبدًا أو جبانًا. تخيلت هذا لأنني كنت أفوقهم ثقافة وإدراكًا. ولكن ذلك لم يكن خيالًا فحسب، بل واقعًا حقيقيًّا. فقد كنت عبدًا وجبانًا. أقولها في غير ما ترددٍ أو ارتباك. إذ ينبغي أن يكون كل مهذب في عصرنا عبدًا وجبانًا. هذه هي حاله الطبيعية لا شك عندي في ذلك. فإن تنشئته وتكوينه يؤديان به إلى تلك النهاية وليس ذلك قاصرًا على الوقت الحاضر لظروف عارضة معينة ولكنه حتم على كل مهذب في كل زمان وفي كل عصر أن يكون عبدًا وجبانًا. إنه قانون الطبيعة لجميع المهذبين في العالم بأسره. ولو حدث أن كان أحدهم شجاعًا في أمر من الأمور فليس له أن يتعزى بذلك أو يفخر به، إذ أنه لا يلبث أن يجبن أمام أمر آخر. هكذا تنتهي به الحال دائمًا دون تغيير أو تبديل. فالإقدام قاصر على الحمير والبغال وحدها حتى تنحى تنحى جانبًا. ولا حاجة بنا إلى الاهتمام بها لأنها في الواقع تافهة لا قيمة لها.

وثمة أمر آخر شغلني في تلك الأيام هو أنني لم أكن أشبه أحدًا ولا يشبهني أحد فكنت أحدث نفسي في تأمل وتفكير قائلًا: "إني نسيج وحدي وهم جميعًا على غرار واحد".

من ذلك يتضح أنني كنت لا أزال في سن الحداثة.

على أنه كان يحدث أحيانًا نقيض ذلك تمامًا فأجد الذهاب إلى العمل شيئًا كريهًا ويثقل عليَّ هذا الشعور فأعود إلى بيتي مريضًا. ولكن إذا بي فجأة وبلا مناسبة تعتريني نوبة من الشك وعدم المبالاة (فقد كان كل شيء يحدث لي في نوبات) فأضحك من ضيق صدري ونفوري من كل شيء وألوم نفسي لنزوعها إلى الخيال. فأراني حينًا وقد رغبت عن الحديث إلى الناس وأحيانًا لا أكتفي بالحديث فحسب، بل أذهب إلى حد التفكير في مصادقتهم فيزول فجأة ولغير ما سبب ذلك النفور الذي كنت أشعر به. ومن يدري؟ لعل هذا الشعور غريب عني في الحقيقة، ولعله مصطنع فحسب أو مكتسب من الكتب. فإنني للآن لم اقطع برأي في هذا الموضوع. وقد حدث ذات مرة أن صادقت جميع زملائي وذهبت إليهم في بيوتهم وشاركتهم في لهوهم وتناولت معهم كؤوس الفودكا والحديث عن الترقيات.. ولكن اسمحوا لي هنا أن أخرج عن الموضوع.

نحن الروس بصفة عامة لم يوجد لدينا قط أولئك الحمقى من الرومانسيين المتعالين من الألمان أو الفرنسيين، بصفة خاصة أولئك الذين لا يتأثرون بشيء أيًّا كان، فلو حدث زلزال أو هلكت فرنسا بأسرها عند خطوط الدفاع، لما اهتزت لذلك خلجة من خلجاتهم ولما كان لديهم من حسن الخلق ما يجعلهم يتظاهرون بأن شيئًا ما قد تغير في حياتهم، بل يواصلون أغانيهم المتعالية إلى آخر ساعة من ساعات حياتهم وذلك لأنهم حمقى. أمَّا نحن في روسيا فليس بيننا حمقى. هذا أمر معروف وهذا هو ما يميزنا عن غيرنا من الشعوب. لذلك نرى أن هذه الطبائع المتعالية لا توجد بيننا في صورتها الخالصة. أما تلك الفكرة التي تقول بوجودها بيننا فمبعثها صحافيونا (الواقعيون) ونقادنا المعاصرون الذين لا يفتأون يترقبون أمثال كونتسانزوجلو والعم بيوتر إيفانينتش. ويتخذونهم في حماقة مثلًا عليا لنا. لقد أساءوا إلى سمعة رومانسيينا حين عدوهم من نفس ذلك النوع المتعالي في ألمانيا وفرنسا. ولكن الأمر على العكس من ذلك فإن مميزات (الرومانسيين) عندنا تتعارض تعارضًا تامًّا مباشرًا مع النوع الأوروبي المتعالي ولا يمكن تطبيق أي مقياس أوروبي عليهم. (ولتأذنوا لي باستعمال لفظ (رومانسي) فهو لفظ قديم ذو مكانة محترمة وتاريخ مجيد كما أنه مألوف لدى الجميع) فمما يميز الرومانسي عندنا أنه يفهم كل شيء ويرى كل شيء، بل غالبًا ما يراه في وضوح لا يقارن بما تراه به أكثر العقول الواقعية: كما أنه يأبى الإيمان بأي شخص أو أي شيء ولكنه في نفس الوقت لا يحتقر شيئًا. وهو يستسلم ويخضع مكرًا ودهاء. ولكنه لا يفتأ يضع نصب عينيه هدفًا عمليًّا نافعًا (كالسكنى بالمجان على نفقة الحكومة أو الحصول على معاش شهري أو الفوز بالأوسمة والنياشين) وهو لا يغفل عن هذا الهدف في جميع كتاباته الحماسية ومؤلفاته الضخمة من القصائد الغنائية وهو في نفس الوقت يحافظ على نفسه أيضًا عرضًا واتفاقًا كأنه جوهرة ثمينة أودعت مكانا أمينا لا لسبب إِلاّ لمصلحة "الخير والجمال"، فالرومانسي عندنا شخصية عريضة كل العرض كما أنني أؤكد لكم.. وأستطيع أن أؤكد لكم من خبرتي بالطبع أنه شر أوغادنا جميعًا. وهذا طبعًا إذا كان ذكيًّا. ولكنني ماذا أقول؟ إن الرومانسي ذكي دائمًا وكل ما قصدت أن أقوله هو أنه قد وجد بيننا رومانسيون حمقى ولكنهم شيء لا يعتد به. وهم لم يكونوا كذلك إلا لأنهم في صباهم قد حذوا حذو الألمان وأقاموا في مكان ما في الخارج مؤثرين فيمار أو الغابة السوداء حرصًا على توفير مزيد من الراحة لجوهرتهم الثمينة.

أنا مثلًا أحتقر عملي الرسمي عن صدق ولكنني لم أصرح بهذا الشعور علنًا لا لشيء إلا لأنه كان عملي وكنت أتقاضى عنه مرتبًا. وعلى أية حال فلتذكروا أنني لم أصرح باحتقاري له علنًا. فالرومانسي عندنا يفضل أن يفقد قواه العقلية، وهو أمر نادرًا ما يحدث على الجهر بالتشهير ما لم يكن قد وضع نصب عينيه عملًا آخِر. وهو لا يطرد من عمله مطلقًا. فأقصى ما يحدث له إذا

ما اشتد به الخبال أن يؤخذ إلى مصحة عقلية (كملك إسبانيا) ولكن الخيال في روسيا قاصر على الشقر النحاف من الناس. ويبلغ كثير من الرومانسيين ممن يفوق عددهم الحصر مركزًا مرموقًا في عملهم في أواخر حياتهم. فمما يلفت النظر في شخصية الرومانسي تعدد نواحيها والقدرة الفائقة على ممارسة أشد الأحاسيس تناقضًا. ولقد روح عني هذا الخاطر حتى في تلك الأيام ومازلت حتى الآن عند هذا الرأي. وهذا هو السبب في وجود كثير من (الطبائع العريضة) بيننا، تلك التي لا تنسى قط مثلها الأعلى حتى وهي في أشد حالات الذلة والمهانة.

وعلى الرغم من أنهم لا يحركون ساكنًا ألبتة للذود عن مثلهم الأعلى وعلى الرغم من أنهم لصوص وأشرار وأوغاد خونة، فإنهم يقدسون ذكرى مثلهم الأول بعيون دامعة كما أنهم مخلصون صادقون في أعماق نفوسهم على صورة غير مألوفة. نعم فلدينا دون غيرنا يمكن أن يكون أفسد الأوغاد طرًّا منطويًا على أسمى معاني الإخلاص المطلق دون أن يني لحظة عن وغادته.

وأعود فأقول إن رومانسيينا الذين كثيرًا ما يصبحون أوغادًا على صورة تامة كاملة (وإني أستعمل لفظ أوغاد في تلطف وعطف) يكشفون فجأة عن إحساس بالواقع وإدراك عملي يحار لهما رؤساؤهم ولا يملك أمامهما الجمهور بصفة عامة إلا أن يصيح في دهشة وعجب.

فتعدد النواحي في شخصيتهم أمر يثير الدهشة حتمًا ولا يعلم إلا الله ماذا يمكن أن يصير إليه فيما بعد وماذا يدخره لنا المستقبل. إنه معدن لا بأس به! ولا أقول ذلك مدفوعًا بوطنية حمقاء مفاخرة. ولكنني واثق بأنكم تتخيلون مرة أخرى أنني أمزح. أو ربما كان الأمر عكس ذلك تمامًا فتعتقدون عن اقتناع أنني أظن ذلك حقًّا. وعلى أية حال يا سادتي فسأرحب بكلتا النظرتين وأعدهما شرفًا تمنحونني إياه ومعروفًا تؤدونه إليَّ. وأرجو أن تغفروا لي هذا الاستطراد.

إنني بالطبع لم أوثق عرى الصداقة بيني وبين زملائي وسرعان ما اختلفت معهم بل قد صورت لي حداثة سني وقلة خبرتي أن أقلع عن تحيتهم كأني قد قطعت كل ما بيننا من روابط. ولم يحدث أن اختلطت ببعض الأصدقاء إلا مرة واحدة. أما فيما عدا ذلك فقد كنت في وحدة دائمة.

كنت أقضي معظم الوقت في القراءة في بيتي محاولًا أن أخنق كل ما كانت تجيش به نفسي، دوامًا عن طريق الانطباعات الخارجية. ولم تكن لي من وسيلة خارجية إلا القراءة التي كانت في الواقع عونًا كبيرًا لي، تثيرني وتسرني وتؤلمني ولكنها لشد ما كانت تبعث الملل في نفسي، في بعض الأحيان. فالإنسان يحن إلى الحركة على الرغم من كل شيء. وهكذا انغمست في الرذيلة المظلمة الدنيئة البغيضة في أحط صورها. فقد كانت عواطفي المعذبة حادة مؤلمة من أثر ذلك الضيق المرضي الذي كان لا يفتأ ينتابني. فكانت تتملكني نوازِع هسِتيرية تصحبها دموع وتشِنجات. ولم يكنِ لدِيَّ من

وسيلة إلا القراءة، أقصد أنه لم يكن ثمة شيء أستطيع احترامه أو أنجذب نحوه في المحيط الذي كنت أعيش فيه. كما كان يغمرني الانقباض أيضًا وتتحرق نفسي في شوق هستيري إلى التنافر والتناقض فانزلقت إلى الرذيلة. إنني لم أقل كل هذا تبريرًا لسلوكي.. ولكن لا! فإنني أكذب. فقد أردت فعلًا أن أبرر ما فعلت. سادتي هذه ملاحظة بسيطة أبديها لمصلحتي الخاصة فإنني لا أريد أن أكذب. لقد عاهدت نفسي على ذلك.
وهكذا كنت أتسلل في ظلام الليل خائفًا وحيدًا وأنغمس في الرذيلة القذرة، يخالجني شعور بالخجل لا يفارقني ألبتة حتى في أبغض اللحظات مما كان يجعلني في ذلك الوقت أكاد أنفجر بالسب واللعنات. وكنت حتى في تلك الآونة أضم طي روحي عالمي السفلي الذي كنت أعيش فيه فكان ينتابني ذعر شديد من أن يراني أو يقابلني أو يتعرف عليَّ أحد. وكنت أرتاد بؤرًا مختلفة غير معروفة.
وذات ليلة بينما كنت مارًّا بإحدى الحانات رأيت من خلال نافذة مضاءة جمعًا من السادة يتعاركون بعصي البلياردو ورأيت واحدًا منهم يُلقى به من النافذة! قد يبعث هذا المنظر في نفسي نفورًا شديدًا في أوقات أخرى ولكنني في ذلك الوقت كنت في حالة نفسية تجعلني أحسد فعلًا ذلك السيد الذي قذف به من النافذة. وقد بلغ مني الحسد أنني دخلت الحانة ودلفت إلى غرفة البلياردو وحدثت نفسي قائلًا: "قد أتعارك معهم أنا أيضًا فيلقون بي من النافذة".
لم أكن مخمورًا، ولكن ماذا يسعني أن أفعل؟ فالانقباض يدفع الإنسان إلى أقصى حالات الهستيريا. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. فقد بدا أنني لم أستحق حتى أن يقذف بي من النافذة وانصرفت دون أن أفوز بالعراك الذي أردته.
فقد وضعني أحد الضباط في مكاني منذ اللحظة الأولى.
كنت واقفًا بجانب مائدة البلياردو معترضًا الطريق على غير انتباه مني وأراد هو أن يمر فأمسك بكتفي دون ان ينبس بكلمة ودون أن يصدر عنه تحذير أو تفسير، وأبعدني عن المكان الذي كنت أقف فيه إلى مكان آخر، ثم مضى في سبيله كأنه لم يلحظ وجودي. ولو أنه انهال عليَّ ضربًا لغفرت له ولكنني لم أستطع أن أغفر له إبعادي عن طريقه دون أن يلحظ وجودي.
ولا يعلم إلا الله ماذا كنت أعطي مقابل شجار حقيقي على الصورة المألوفة، شجار مهذب ذي أسلوب أدبي إذا صح هذا التعبير. فقد عوملت كذبابة. كان هذا الضابط يزيد طوله على ستة أقدام بينما كنت أنا شخصًا نحيلًا ضئيل الجسم ولكن كان في وسعي أن أثير شجارًا. فما كان عليَّ إلا أن أحتج حتى يلقي بي حتما من النافذة. ولكنني تحولت عن هذا الرأي وآثرت الانسحاب على الرغم مني.
خرجت من الحانة وتوجهت فورًا إلى داري مرتبكًا مضطربًا. وفي الليلة التالية غادرت مِنزلي أيضًا تحدوني نفس النوايا الفاجرة الداعرة متخفيًا أكثر من ذي

قبل، ذليلًا شقيًّا أكثر من ذي قبل، تكاد تطفر من عيني الدموع. ومع ذلك فقد خرجت مرة أخرى. لا تتخيلوا يا سادة مع كل ذلك أن الجبن هو الذي جعلني أنسل هاربًا من الضابط. فلم أكن قط جبانًا في أعماقي رغم أنني كنت دائمًا جبانًا في أعمالي. تمهلوا ولا تضحكوا. فإني أؤكد لكم أنني أستطيع تفسير كل شيء.

آهٍ لو أن هذا الضابط كان من ذلك الصنف الذي يقبل الدخول في مبارزة! ولكن لا، لقد كان ويا للأسف من أولئك السادة (الذين انقرضوا منذ زمن طويل) يفضل العراك بعصي البلياردو أو الالتجاء إلى الشرطة، شأن الملازم بيروجوف في إحدى تمثيليات جوجول. هؤلاء السادة كانوا لا يدخلون مبارزات ويعتقدون أن الدخول في مبارزة مع مدني مثلي عملٍ لا يليق مطلقًا على أية حال، وكانوا يعدون المبارزة بصفة عامة شيئًا مستحيلًا فهي في نظرهم نزعة فرنسية متحررة. ولكنهم كانوا على استعداد تام للتهديد والوعيد وبخاصة إذا تجاوزت قاماتهم ستة أقدام.

لم أنسل هاربًا بدافع من جبني ولكن بسبب كبريائي التي لا حد لها. لم يخفني طول قامته ولا ما قد يلحقني من ضرب مبرح وإلقاء من النافذة، فإني أؤكد لكم أني لديَّ ما يكفي لذلك من شجاعة بدنية، ولكنها الشجاعة الأدبية هي التي كانت تنقصني. فقد كان مبعث خوفي سخرية الحاضرين جميعًا ابتداء من الحكم الوقح إلى أحقر كاتب قواد عفن الرائحة ينضح العرق على ياقته، وعجزهم عن فهم ما أقوله عندما أبدأ احتجاجي مخاطبًا إياهم بلغة أدبية. لأن المرء منا من وجهة نظر الشرف، لا الشرف في حد ذاته بل من وجهة نظر الشرف (Point d’honneur) لا يستطيع أن يتحدث إلا بلغة أدبية. فأنتم لا تستطيعون أن تتحدثوا عن (وجهة نظر الشرف بلغة عادية). وقد كنت مقتنعًا تمامًا (بوحي من إحساسي بالواقع على الرغم من هذه الرومانسية!) إنهم لن يزيدوا على أن ينفجروا ضاحكين وإن الضابط سوف لا يضربني فحسب دون إهانتي. بل إنه بلا شك سيلكزني في ظهري بركبتيه ويرفسني وهو يتبعني حول مائدة البلياردو وعندئذ فقط قد تأخذه الشفقة بي فيلقي بي من النافذة.

لا شك أن مثل هذا الحادث التافه لا يمكن أن ينتهي معي عند هذا الحد. فلقد لقيت هذا الضابط مرارًا بعد ذلك في الطريق وراقبته بحرص. ولكنني لست متأكدًا من أنه قد تعرف عليَّ، بل إنني لا أظن ذلك. أقول هذا لدلائل معينة. أما أنا، أما أنا فقد حملقت فيه بحقد وكراهية وهكذا استمرت الحال.. عدة سنوات، بل إن بغضي إياه كان يزداد عمقًا على مر السنين. فهدأت في أول الأمر أختلس المعلومات عن هذا الضابط. وكان من العسير عليَّ أن أفعل ذلك لأنني لم أكن أعرف أحدًا. ولكنني ذات يوم بينما كنت أتتبعه على مسافة كأنني مشدود إليه سمعت شخصًا يناديه في الطريق بلقبه - وهكذا عرفت لقبه - وتتبعته مرة أخرى إلى شقته وعلمت من البواب مقابل عشرة كوبكات

أين يعيش وفي أي طابق يسكن وكيف كان يعيش.. وحيدًا أو مع غيره، وما إلى ذلك، عرفت في الواقع كل ما يمكن معرفته من بواب.
وذات صباح خطر لي فجأة أن أكتب هجاء لهذا الضابط في شكل رواية تكشف عن نذالته وذلك على الرغم من أنني لم أجرب قلمي من قبل. فكتبت الرواية بلذة وشغف. وكشفت فيها فعلًا عن نذالته بل بالغت في ذلك. وقد حورت لقبه بحيث يمكن التعرف عليه بسهولة ولكنني غيرته بعد أن فكرت في الأمر وأرسلت القصة إلى مجلة أو تتشستفينيا رابيسكى. ولكن مثل هذا الهجوم لم يكن وقتذاك لونًا سائدًا فلم تطبع قصتي، مما أثار غضبي الشديد.
كنت أحيانًا أختنق فعلًا ببغضي إياه. وفي النهاية صح عزمي على تحدي عدوي في مبارزة. فدبجت له خطابًا رائعًا جذابًا متوسلًا إليه أن يعتذر لي ومنوهًا في شيء من الوضوح بالدخول في مبارزة في حالة رفضه الاعتذار. وكان الخطاب مكتوبًا بصورة تجعل هذا الضابط إذا كان لديه أقل فهم للخير والجمال تجعله يرتمي حتمًا على صدري ويعرض عليَّ صداقته. ولشد ما يكون ذلك جميلًا! وكم يكون بيننا من وفاق! (إذ أنه كان يستطيع أن يحميني برتبته العالية وأستطيع أنا أن أرفع من مستواه العقلي بثقافتي.. بأفكاري.. كان من الممكن أن يحدث الكثير).
وتصوروا هذا أيها السادة، أن ذلك كان بعد مضي سنتين على إهانته إياي. وأنه على الرغم مما كان في خطابي من براعة تغطي هذا التأخير وتفسره، فإنه لو أرسل لكان مثارًا للسخرية بعد أن فات أوانه. ولكن حمدًا لله (الذي لازلت أحمده حتى اليوم والدموع في عيني) على أنني لم أرسل الخطاب. إن قشعريرة باردة تسري في بدني عندما أفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو أنني أرسلته.
وفجأة انتقمت لنفسي من أيسر طريق بفكرة عبقرية! فقد أومض في ذهني هذا الخاطر اللماح على غير انتظار. كان من عادتي أحيانًا في أيام العطلات أن أخرج للنزهة على الشاطئ المشمس لنهر نيفسكي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر. وعلى الرغم من أنها لم تكن نزهة بقدر ما كانت سلسلة متصلة من التعاسة والمهانة والغيظ فقد كان ذلك بلا شك هو ما أبغيه بالضبط. فكنت أتلوى في طريقي كثعبان السمك الصغير على صورة معيبة للغاية لا أفتأ أتنحى جانبًا لأفسح الطريق للجنرالات وضباط الحرس والفرسان أو للسيدات. في مثل هذه اللحظات كنت أشعر بوخز في قلبي وسخونة تعتري ظهري كله لمجرد التفكير في رثاثة ملبسي، وتعاسة هيكلي القميء المهزول. كان ذلك استشهادًا لا جدال فيه وتحقيرًا مستمرًّا لا طاقة لي به من جراء ذلك التفكير الذي كان يتحول إلى إحساس متصل مباشر بأنني لا أعدو أن أكون ذبابة في نظر هذا العالم أجمع، ذبابة قذرة منفرة، كنت أفوقهم بالطبع ذكاء وإدراكًا ورهافة في الحس ولكنني ذبابة لا تبرح تفسح الطريق لكل شخص، يزدريها ويؤذيها الجميع. لِماذا كنت أسِوم نفسي هذا العذاب؟

لماذا كنت أذهب إلى النيفسكي؟ لست أدري. كنت أحس بنفسي منساقًا إليه في كل فرصة ممكنة.
عندئذ بدأت أمارس تدفق تلك المتعة التي تحدثت عنها في الفصل الأول. فأحسست بعدما حدث بيني وبين ذلك الضابط أنني مشدود إلى هذا المكان أكثر من ذي قبل. فهناك عند نهر نيفسكي كنت ألقاه في معظم الأحيان. وهناك كنت أنظر إليه في إعجاب. وكان هو أيضًا يرتاد هذا المكان وبخاصة في أيام العطلات، كما كان هو أيضًا يتنحى عن الطرق للجنرالات وأصحاب الرتب العالية وكان هو أيضا يتلوى بينهم كالثعبان الصغير.. أما من كانوا مثلي أو حتى أحسن مني مظهرًا فكان لا يكترث لوجودهم. إذ كان يتجه نحوهم رأسًا وكأن الطريق فضاء أمامه خلو من كل شيء ولا يتنحى مطلقًا مهما تكن الظروف. كنت أتملى في نهم ولذة بغضي إياه وغيظي منه وأنا أراقبه و.. وكنت لا أفتأ في غيظ أفسح له الطريق. ولشد ما أغاظني أنني حتى في الطريق لم أستطع أن أكون معه على قدم المساواة.
وظللت أسأل نفسي في غضب هستيري وأنا مستيقظ أحيانًا في الساعة الثالثة صباحًا قائلًا: "ما الذي يدعوني دائمًا إلى المبادرة بالتنحي عن الطريق؟ لماذا لا أكون أنا البادئ لا هو؟ ليس ثمة قاعدة لذلك. ليس ثمة قانون مكتوب. ليكن إفساح الطريق متعادلًا كما هي العادة عندما يلتقي المهذبون من الناس فيتحرك هو قليلًا وأتحرك أنا قليلًا وكلانا يمر في احترام متبادل".
ولكن ذلك لم يحدث قط. وكنت أتنحى أنا دائمًا في حين أنه لا يلحظ حتى إفساحي الطريق له. وفجأة طرأت على ذهني فكرة لامعة! وحدثت نفسي قائلًا: "ماذا يحدث لو لقيته ولم أتنحَ جانبًا؟ ماذا يحدث لو لم أتنحَ جانبًا عن عمد حتى ولو أصطدم به؟ كيف يكون ذلك؟" وتملكتني تلك الفكرة الجريئة فلم يهدأ لي خاطر. كنت لا أفتأ أحلم بها على صورة مفزعة. وتعمدت أن أزيد من ترددي على النيفسكي لأصور لنفسي في مزيد من الوضوح كيف أنفذ الفكرة عندما أقدم عليها فعلًا. ففرحت إذ بدت لي هذه النية ممكنة وعملية أكثر مما كنت أتخيل.
وحدثت نفسي قائلًا وقد ازداد فرحي بالفكرة، لا شك أنني لن أدفعه حقًّا بل أكتفي بالسير في طريقي دون أن أتنحى جانبًا ولا أصطدم به بعنف شديد بل سنمشي كتفا لكتف بقدر ما تسمح به قواعد اللياقة. وسأدفعه بقدر ما يدفعني. وفي النهاية استقر رأيي تمامًا. ولكن تأهبي لذلك استغرق وقتًا طويلًا جدًّا. فلا بد أن أبدو أولًا عند تنفيذ خطتي أليق مظهرًا مما أنا عليه إلى حد ما. فكان عليَّ أن أفكر في هندامي. فحدثت نفسي قائلًا: "إذا ما حدثت مثلًا في حالة الضرورة فضيحة علنية" (والجمهور هناك نخبة من علية القوم recherché فهناك تتنزه الكونتيسة والأمير.. وجميع رجال الأدب) فلا بد أن أكون متأنقًا في ملبسي فهذا يوحي بالاحترام ومن شأنه وحده أن يضعنا على قدم المساواة في نظر المجتمع.

ولتحقيق هذا الهدف طلبت جزءًا من مرتبي مقدمًا وابتعت قفازًا أسود وقبعة لائقة من محل تشيركين. إذ بدا لي أن القفاز الأسود أكثر احتشامًا ووقارًا وأهدأ ذوقًا Bon Ton من القفازات الصفراء التي شغلت تفكيري أول الأمر. قلت لنفسي: "إن لونها صارخ فتبدو وكأن صاحبها يحاول الظهور". وعدلت عن شراء القفازات الصفراء. كما كنت أملك منذ زمن طويل قميصًا جميلًا ذا أزرار بيضاء من العظم. ولم يعقني بعد ذلك إلا معطفي الذي كان في حد ذاته نافعًا جدًّا فقد كان يدفئني ولكنه كان كثير الرتوق تعلوه ياقة من ذلك الفراء الأمريكي الذي كان غاية في الابتذال. فكان عليَّ أن أغيرها بأي ثمن وأن أحصل على أخرى من جلد القندس، ذلك النوع الذي يرتديه الضباط. ولهذا الغرض بدأت أتردد على محل جوسيتني دفور، وبعد عدة محاولات وقع اختياري على واحدة من ذلك النوع الألماني الرخيص. ورغم أنه سرعان ما يتهدل ويصبح رث المنظر، غير أنه يبدو لأول وهلة آية في الأناقة. ولم أكن في حاجة إليها إلا لمناسبة واحدة. وسألت عن ثمنها فكان مع ذلك باهظًا. وبعد تفكير عميق قررت أن أبيع ياقتي الفرائية. أما عن باقي النقود، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إليَّ، فقد قررت اقتراضه من أنطون أنطونيتش سيتوتسكين رئيسي المباشر وهو شخص متواضع رغم تجهمه واتزانه. فلم يكن يقرض أحدًا قط نقوده ولكنني عند دخولي الخدمة كان قد رشحني له بتوصية خاصة شخص ذو مكانة محترمة، وهو الذي حصل لي على هذه الوظيفة. ولشد ما انزعجت لذلك الخاطر. فقد بدا لي أن الاقتراض من أنطون أنطونيتش أمر مخيف مخجل. فلم أذق طعم النوم مدة ليلتين أو ثلاث. والواقع أن نومي لم يكن هادئًا في ذلك الوقت، فقد كنت محمومًا وكان ينتابني هبوط غامض في القلب أو خفقان مفاجئ. خفقان خفقان! دهش أنطون أنطوينتش في أول الأمر ثم قطب جبينه وفكر في الأمر ولكنه رغم ذلك أقرضني النقود فعلًا بعد أن أخذ مني توكيلًا كتابيًّا باستقطاع المبلغ الذي أقرضني إياه من مرتبي بعد أسبوعين.

وعلى هذه الصورة تم كل شيء في النهاية. فحلت الياقة الأنيقة محل الياقة الفرائية الرثة. وشرعت تدريجيًّا في تنفيذ خطتي. فلا جدوى مطلقًا من العمل المرتجل الذي لا تبصر فيه. كان لا بد من تنفيذ الخطة بمهارة وتريث. ولكنني يجب أن أقر أنني بدأت أفقد الأمل بعد عدة محاولات: فلم يمكن أن يصطدم أحدنا بالآخر. كنت أعد العدة تمامًا ويصح عزمي كلية، ويبدو لي وكأنني سأصطدم به مباشرة، وإذا بي قبل أن أفطن لما أفعله أخطو جانبًا مرة أخرى ويمر هو دون أن يلحظني. بل إنني كنت أدعو الله وأنا أقترب منه أن يهبني العزم والإرادة. وذات مرة استقر رأيي تمامًا ولكنني تعثرت وسقطت عند قدميه وذلك لأنني في اللحظة الأخيرة عندما أصبحت على مسافة ست بوصات منه خانتني شجاعتي. فخطا هو من فوقي في هدوء شديد بينما

تدحرجت أنا جانبًا كالكرة. وفي تلك الليلة عاودني المرض فانتابتني الحمى واعتراني الهذيان.

وفجأة انتهى كل شيء على أسعد حال. إذ قررت في الليلة السابقةِ العدولَ عن تنفيذ خطتي المشؤومة والإقلاع عنها نهائيًّا. ولهذا الغرض ذهبت إلى النيفسكي للمرة الأخيرة لأرى فقط كيف سأقلع عنها نهائيًّا. وإذا بي على غير انتظار وأنا على بعد ثلاث خطوات من عدوي أوطِّن العزم على تنفيذ خطتي، فأغمضت عيني واصطدم أحدنا بالآخر بكل قوة وسرعة كتفًا لكتف! ولم أتحرك قيد أنملة بل مضيت في سبيلي وأنا معه على قدم المساواة تمامًا! ولكنه لم ينظر حوله وتظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا. ولكن ذلك لم يكن إلا تظاهرًا. إني مقتنع بذلك. إني مقتنع به حتى اليوم! لا شك أنني تألمت أكثر منه، فقد كان أقوى مني ولكن لا أهمية لذلك. فالمهم هو أنني قد حققت هدفي وصنت كرامتي فلم أتنازل عن خطوة واحدة ووضعت نفسي معه علنًا على قدم المساواة اجتماعيًّا. وعدت إلى منزلي يخالجني شعور بأنني قد انتقمت تمامًا لكل شيء. فتولتني الفرحة. وشعرت بنشوة النصر ورحت أنشد ألحانًا إيطالية. ولا شك أنني لن أصف لكم ما حدث لي بعد ذلك بثلاثة أيام. ففي وسعكم أن تقدروا ذلك. إذا كنتم قد قرأتم الفصل الأول من هذا الكتاب. ونقل الضابط بعد ذلك ولم أره حتى الآن مدة أربعة عشر عامًا. ترى ماذا يفعل الآن هذا الصديق العزيز؟ وعلى من ينتصر في سهولة ويسر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

ولكن لا تكاد تنتهي فترة التهتك عندي حتى ينتابني المرض الشديد بعد ذلك. ثم أشعر على إثرها بتأنيب الضمير. فأحاول التخلص منه فتزداد عليَّ وطأة المرض ومع ذلك فقد ألفت هذا أيضًا تدريجيًّا. لقد ألفت كل شيء أو بالأحرى أسلمت نفسي مختارًا لتحمله. ولكن كان لديَّ مهرب يصلح كل شيء. هو أن ألوذ (بالخير والجمال) في الأحلام طبعًا. فكثيرًا ما كنت أحلم على صورة رهيبة. كنت أستغرق في الأحلام ثلاثة أشهر بطولها منزويًا في جحري. وبوسعكم أن تقتنعوا أنني كنت في تلك اللحظات اختلف تمامًا عن ذلك السيد الذي حدا به اضطراب قلبه الوجل إلى وضع تلك الياقة الألمانية على معطفه. فقد كنت أتحول فجأة إلى بطل. وما كنت أسمح حينذاك لذلك الملازم الذي يبلغ طوله ستة أقدام بالدخول في بيتي حتى ولو قدم لزيارتي. إنني لم أستطع حتى أن أتصوره أمامي. ماذا كانت أحلامي وكيف كنت أرضي بها نفسي؟ هذا هو ما يتعذر عليَّ أن أقوله الآن ولكنني كنت راضيًا بها وقتذاك. بل أجدني فعلًا راضيًا بها إلى حد ما حتى الآن. ولشد ما كانت هذه الأحلام حلوة براقة على إثر نوبات التهتك. كانت تغشاني وفي طياتها دموع وندم وسخط ونشوة. وأقسم لكم صادقًا أنني كنت أحس في بعض اللحظات بالنشوة الأكيدة والسعادة، وتصفو نفسي تمامًا من كل أثر للسخرية فيعمر قلبي بالإيمان والأمل والحب. كنت في تلك الأوقات أؤمن إيمانًا أعمى بأن كل ذلك عن طريق معجزة ما أو ظرف خارجي سينبلج فجأة وينبسط أمامي، فإذا بطريق طويل حافل بالنشاط اللائق - الخير الكريم والمهيأ قبل كل شيء (وهو نشاط لم أكن أدري كنهه ولكن أعظم ما فيه أنه مهيأ لي) - يبدو أمام عيني فأخرج إلى ضوء النهار أكاد أمتطي صهوة جواد أبيض تعلو جبيني أكاليل الغار. لم أستطع أن أتصور لنفسي مكانًا دون الصدارة، ولهذا السبب بعينه ارتضيت لنفسي أن أشغل المكان الأدنى في دنيا الحقيقة. فإمَّا البطولة أو الوحل، ولا شيء بينهما. كان هذا هو سر دماري. فعندما أكون في الوحل أواسي نفسي ببطولتي في أوقات أخرى. هكذا كانت البطولة ستارًا للرغام. فمما يشين الرجل العادي أن يدنس نفسه أما البطل فهو أسمى من أن يغمره الدنس تمامًا. ولذا ففي وسعه أن يدنس نفسه. ومما يجدر ذكره أن هذه النوبات من (الخير والجمال) كانت تنتابني حتى في أثناء فترات التهتك، بل في تلك اللحظات التي ألامس فيها حضيض الهاوية. كانت تنتابني على دفعات متفرقة وكأنها تذكرني بنفسها ولكنها لم تكن بظهورها تبدد ما كنت أشعر به من لذة. بل على العكس من ذلك كانت عن طريق المفارقة تضفي على التهتك حماسة ولذة. كما كانت تغشاني بالقدر الذي يجعلها توابل مشهية، توابل قوامها التناقض والألم والتحليل الباطني المؤلم. فكانت كل

تلك الآلام والوخزات تضفي على تهتكي لذعة معينة بل معنًى معينًا. والحق أنها كانت تفي بالغرض من التوابل المشهية على أتم صورة. كان فيها شيء من عمق المعنى.. أجل فما كنت أستطيع أن أسلم نفسي لدعارة مبتذلة مباشرة. كما يفعل الكتبة وأتحمل كل ما فيها من قذارة ودنس. ماذا كان يمكن أن يجذبني إليها إذن ويشدني إلى الطريق ليلًا؟ كلا. فقد كانت لديَّ وسيلة سامية رفيعة للتخلص منها جميعًا.
يا لتلك الرحمة المليئة بالحب يا إلهي، يا لتلك الرحمة المليئة بالحب التي كنت أشعر بها وقتذاك في أثناء تلك الأحلام! في تلك (السبحات في دنيا الخير والجمال) فعلى الرغم من أنه كان حبًّا خياليًّا ورغم أنه لم يأخذ صورة عملية نحو أي إنسان. فقد كان فياضًا تزخر به النفس إلى حد أنني لم أكن أحس حتى بما يدفعني إلى تطبيقه بعد ذلك في دنيا الحقيقة، وإلا لكان فيه إسراف ومغالاة. مع ذلك فكل شيء كان ينتقل على صورة مرضية في تحول بطيء أخاذ إلى عالم الفن، أي إلى أشكال الحياة الجميلة التي تقف مهيأة معدة. إنها صور سرق معظمها من الشعراء والروائيين ثم شكلت بحيث لاءمت شتى الحاجات والمنافع. فكنت مثلًا أنتصر على الناس جميعًا. وكان الجميع بالطبع مدحورين مهزومين مكرهين من تلقاء أنفسهم على الاعتراف بسطوتي وتفوقي فأعفو عنهم جميعًا. كنت شاعرًا وسيدًا عظيمًا وعاشقًا. وهبطت عليَّ ملايين لا حصر لها فوهبتها فورًا لخير الإنسانية وفي نفس الوقت كنت أعترف أمام الناس جميعًا بأفعالي الشائنة التي لم تكن بالطبع شائنة فحسب بل كانت تنطوي على قدر كبير من (الخير والجمال) على طريقة ما نفرد. ويقبلني الجميع ويبكون (يا لحماقتهم إذا لم يفعلوا ذلك) بينما أسير أنا عاري القدمين جائعًا داعيًا إلى أفكار جديدة ومحاربًا في معركة ظافرة كمعركة أوسترليتز ضد أعداء العلم والإصلاح. ثم تعزف الفرقة الموسيقية لحنًا حماسيًّا ويعلن العفو العام ويوافق البابا على الانسحاب من روما إلى البرازيل ثم تقام حفلة راقصة لإيطاليا بأسرها في فيلا بورجيز على شواطئ بحيرة كومو بعد نقلها لهذا الغرض إلى جوار روما. ثم يمثل بعد ذلك مشهد بين الشجيرات وما إلى ذلك وما إلى ذلك، كأنكم لا تعرفون كل شيء عن ذلك!
ستقولون إن الكشف عن هذا كله أمام الناس أمر مبتذل حقير بعد كل ما اعترفت به من دموع ونشوة. ولكن فيم الحقارة؟ أتظنون أني خجل من هذا كله وأنه أكثر سخفًا من أي شيء في حياتكم أيها السادة؟ إني أستطيع أن أؤكد لكم أن بعض هذه الخيالات لم يكن بأية حال سيء التأليف.. إنها لم تحدث كلها على شواطئ بحيرة كومو.. ومع ذلك فأنتم على حق، فهي فعلًا مبتذلة أو حقيرة وأحقر من هذا كله أنني الآن أحاول أن أبرر لكم ذلك. بل وأكثر حقارة من ذلك أنني أقول الآن هذه الملاحظة. ولكن يكفي هذا وإلا فلن نفرغ من ذلك. فكل خطوة ستكون أكثر حقارة من سابقتها. لم يكن في مِقدوري قط تحمل تلك الأحلام أكثر من ثلاثة أشهر دفعة واحدة. دون أن

أشعر برغبة ملحة لا قبل لي بمقاومتها للاندماج في المجتمع. وكان الاندماج في المجتمع معناه زيارة رئيسي في المكتب وهو أنطون أنطوينتش سيتوتشكين الرجل الوحيد الذي لم تنقطع معرفتي به طيلة حياتي. وإني لأعجب الآن لهذه الحقيقة. ولكنني لم أكن أذهب لزيارته إلا عندما تنتابني تلك الرغبة وعندما تصل أحلامي إلى درجةٍ من السعادة أحس عندها في الحال بضرورة معانقة إخواني والجنس البشري كله. ولهذا الغرض كنت في حاجة إلى مخلوق بشري واحد على الأقل يعيش فعلًا في عالم الواقع. ومع ذلك فكان عليَّ أن أزور أنطون أنطوينتش في يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي يقضيه في منزله. وهكذا كان لا بد أن أتحكم في رغبتي الحارة في معانقة الإنسانية بحيث يمكن أن توافق يوم الثلاثاء.

كان أنطون أنطوينتش يعيش في الطابق الرابع من منزل في فايف كورنرز. وكانت شقته تتألف من أربع غرف منخفضة السقف تصغر كل منها عن الأخرى وتتميز كلها بطابع التقشف الشديد والإملاق. وكانت تعيش معه ابنتاه وخالتهما التي تعودت أن تصب الشاي. أما الفتاتان فكانت إحداهما في الثالثة عشرة من العمر والثانية في الرابعة عشرة وكان لكل منهما أنف قصير وكنت أشعر بالخجل الشديد منهما لأنهما كانتا لا تنقطعان عن الهمس والضحك المكتوم. وكان رب البيت يجلس عادة في غرفة المكتبة على أريكة من الجلد وأمامه منضدة، ويجلس معه شخص ما جلله الشيب وهو عادة زميل من مكتبنا أو من أية مصلحة أخرى. لم أرَ هناك قط أكثر من زائرين أو ثلاثة لا يتغيرون مطلقًا. ويتناول حديثهم ضريبة الإنتاج والعمل في مجلس الشيوخ والمرتبات والترقيات وصاحب السعادة، وخير طريقة لإرضائه وما إلى ذلك. وكنت أصبر على الجلوس كالأحمق بجانب هؤلاء الناس مدة أربع ساعات بطولها. أنصت لهم دون أن أعرف ماذا أقول لهم ودون أن أخاطر بكلمة واحدة. فيعتريني ذهول وأشعر أكثر من مرة بالعرق يتصبب على بدني وقد تولاني نوع من الشلل. ولكنني كنت أجد في ذلك لذة ونفعًا. فكنت عند عودتي إلى منزلي أؤجل إلى حينٍ رغبتي في معانقة الجنس البشري بأسره.

وكنت مع ذلك على صلة بشخصٍ آخر هو سيمونوف وهو زميل قديم من أيام الدراسة. كما كان لي بالطبع في بطرسبورج عدد كبير من زملائي في الدراسة ولكنني لم أكن أعاشرهم بل لقد أقلعت عن تحيتهم في الطريق. وأعتقد أني ما انتقلت إلى المصلحة التي أعمل فيها إلا لأتجنب صحبتهم ولأقطع كل صلة بطفولتي البغيضة. فلتنزل اللعنات بتلك المدرسة وبكل تلك السنين التي قضيتها في أشغال شاقة! وخلاصة القول إنني ما أن خرجت إلى الحياة حتى افترقت عن زملائي في الدراسة. ولم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة كنت أحييهم في الطريق. وكان من بينهم سيمونوف هذا الذي لم يكن يمتاز بشيء في المدرسة وكان ذا مزاج هادئ متزن. ولكنني اكتشفت فيه استقلالًا في الشخصية بل أمانة ونزاهة. بل إنني لا أعتقد أنه كان شديد الغباء. فقد

قضيت معه في وقت من الأوقات بعض اللحظات الروحية إلى حد ما ولكنها لم تدم طويلًا بل تعكر صفوها فجأة بطريقة ما. ولكنه من الواضح أنه كان لا يستريح لهذه الذكريات وأظنه كان يخشى دائمًا أن أعود مرة أخرى إلى ترديد النغمة نفسها. وساورني الشك في أنه كان يكرهني ولكنني رغم ذلك ظللت أذهب إليه لأراه لأنني لم أكن على ثقة من ذلك.

وفي إحدى الأمسيات ضقت ذرعًا بوحدتي ففكرت في زيارته أنه كان يوم الخميس وكان أنطون أنطونيتش لا يستقبل أحدًا في ذلك اليوم. وظللت وأنا أصعد الدرج إلى الطابق الرابع أفكر في كراهية هذا الرجل لي وفيما ارتكبته من خطأ بزيارتي له. ولكن لمَّا كان يحدث دائمًا أن تدفعني تلك الأفكار فيما يشبه العمد إلى التورط في مواقف حرجة فقد دخلت مسكنه. وكنت لم أرَ سيمونوف منذ عام تقريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالِث

ووجدت معه زميلين قديمين من أيام الدراسة. وبدا لي أنهم كانوا يناقشون موضوعًا هامًّا. وكان غريبًا أنَّ أحدًا منهم لم يعبأ بدخولي فإني لم أكن قد قابلتهم منذ سنين. وكان من الواضح أنهم ينظرون إليَّ كشيء في مستوى ذبابة وضيعة. ولم أكن قد لقيت منهم هذه المعاملة حتى في المدرسة رغم أنهم كانوا يمقتونني جميعًا. كنت أعلم بالطبع أن احتقارهم إياي الآن كان يرجع إلى فشلي في الوظيفة وإلى انحداري في الحياة إلى هذا الحضيض بسيري في الطرقات رث الهندام وما إلى ذلك، فبدا لهم هذا دليلًا على عجزي وعدم أهميتي. ولكنني لم أكن أتوقع مثل هذا الاحتقار. وبدت على سيمونوف دهشة لا شك فيها لهذه الزيارة. بل حتى فيما مضى من الأيام كانت لا تفتأ تبدو عليه الدهشة كلما جئت لزيارته. كل هذا كان سببًا في ارتباكي فجلست وأنا أكاد أشعر بالتعاسة وبدأت أصغي لحديثهم.

كانوا يتحدثون في جد وحماس عن حفلة عشاء أرادوا أن يقيموها في اليوم التالي لوداع زميل لهم يدعى زفيركوف وهو ضابط في الجيش كان راحلًا إلى إقليم بعيد وقد زاملني أنا أيضًا زفيركوف هذا طيلة الوقت الذي قضيته في المدرسة. ولقد بدأت كراهيتي له على الأخص في الصفوف العليا. أما في الصفوف الأولى فلم يكن إلا صبيًّا جميلًا عابثًا محبوبًا من الجميع. وكان متخلفًا دائمًا في دروسه يزداد سوءًا على مر السنين. ومع ذلك، فقد تخرج بشهادة مرضية لشدة اهتمامه بذلك. وفي أثناء السنة الأخيرة من دراسته ورث إقطاعية يعمل فيها مئتان من العبيد. ولمَّا كنا جميعًا تقريبًا من الفقراء فقد شابت صوته بيننا رنة تيه وكبرياء. كان فظًّا سوقيًّا للغاية ولكنه كان في نفس الوقت طيب القلب حتى في زهوه وخيلائه. وعلى الرغم من أفكاره السطحية الخيالية المزيفة عن الشرف والكرامة فقد تمرغ الجميع أمامه في التراب ما عدا القلة القليلة من زملائنا، وكانوا كلما تذللوا له أسرف هو في خيلائه. ولم يكن لهذا التذلل مأرب أو غاية بل لِما حبته به الطبيعة من مواهب فحسب. وفضلًا عن ذلك فقد كانت الفكرة السائدة بيننا أن زفيركوف كان اختصاصيًّا فيما يتعلق باللياقة والكياسة الاجتماعية. ولشد ما أثارت غضبي تلك الحقيقة الأخيرة. فكنت أمقت نغمة صوته الحاسمة التي توحي بالثقة بالنفس وأكره إعجابه بنكاته الخاصة التي كثيرًا ما كانت غاية في السخف رغم أنه كان جريئًا في لغته. كنت أبغض وجهه الوسيم الذي يبدو عليه الغباء (ومع ذلك فإنني كنت أرحب باستبداله بوجهي الذي ينم عن الذكاء) وكذلك آدابه العسكرية المنطلقة التي كانت سائدة في الأربعينيات. كنت أمقت الطريقة التي تعوَّد أن يتحدث بها عمَّا ينتويه من غزوات نسوية في المستقبل (فإنه لم يجسر على البدء في هجوم على النساء إلا بعد أن نال شارة الضباط

التي كان ينتظرها بنفاد صبر) وراح يفخر بالمبارزات التي سيخوضها طوال الوقت. وإني لأذكر كيف خرجت فجأة عن صمتي الدائم وضيقت عليه الخناق ذات يوم عندما كان يتكلم في لحظة فراغ مع زملائه في الدراسة عن علاقاته في المستقبل مع الجنس اللطيف وقد استبد به العبث كجرو صغير في ضوء الشمس معلنًا من فوره أنه ما من فتاة قروية واحدة في إقطاعيته ستفلت من حبائله وأن ذلك حقه كسيد Droit de Seigneur وإذا ما جرؤ الفلاحون على الاحتجاج فإنه سيجلدهم جميعًا ويضاعف الضريبة عليهم أولئك الأوغاد الملتحين. فصفق له الرعاع والأذلاء ولكنني هاجمته لا عطفًا على الفتيات وآبائهم بل لأنهم كانوا يصفقون لمثل هذه الحشرة فحسب. فتغلبت عليه في تلك المناسبة. ولكن على الرغم من غباء زفيركوف فإنه كان يمتاز بالمرح والجرأة فأخذ الموضوع على محمل الهزل والمزاح مما قلل من انتصاري الساحق عليه. فقد شاركه الآخرون في الضحك. أما هو فقد تغلب عليَّ في مناسبات عدة بعد ذلك على صورة عارضة مازحًا في غير ما حقد. فكنت ألوذ بالصمت في غضب واحتقار وأمتنع عن الإجابة. وعندما تركنا المدرسة راح يتودد إليَّ فلم أصده لِما كان في ذلك من إشباع لغروري ولكن ما لبثنا أن افترقنا كما قضت الظروف. ثم سمعت بعد ذلك عنه كضابط في الثكنات وعن حياة التهتك التي كان يحياها. ثم انتشرت شائعات أخرى عن نجاحه المتلاحق في الخدمة. وكان وقتئذ قد أقلع عن تحيتي في الطريق وساورني الشك في أنه كان يخشى أن يسيء إلى سمعته بتحية شخص تافه مثلي. ولقد رأيته ذات مرة في المسرح جالسًا في إحدى مقصورات الصف الثالث وكان يضع على كتفيه وقتذاك شرائط عسكرية. كان لا يفتأ يتثنى ويدور بجسمه هنا وهناك متحببًا متوددًا إلى كريمات جنرال قديم. لقد تضخم جسمه في ثلاث سنين تضخمًا واضحًا. ولكنه كان لا يزال يحتفظ إلى حد ما بوسامته وخفة حركته. وكان من السهل التنبؤ بأنه سيفرط في البدانة عندما يبلغ الثلاثين من عمره.

ولزفيركوف هذا كان زملائي في الدراسة يعتزمون إقامة حفلة عشاء بمناسبة رحيله. فلقد ظلوا على صلة به طوال هذه السنوات الثلاث ولو أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعدون أنفسهم على قدم المساواة معه. إني مقتنع بذلك.

أما زائرا سيمونوف فكان أحدهما ألمانيًّا متجنسًا بالجنسية الروسية وهو فيرفيتشكين وكان شخصًا ضئيل الجسم ذا وجه كوجوه القردة غبيًّا لا يفتأ يسخر من كل شخص كما كان عدوًّا لدودًا لي منذ أيام الدراسة في الصفوف الأولى، كان شخصًا سوقيًّا فظًّا متكبرًا يصطنع شدة الإحساس بالشرف الشخصي رغم أنه بالطبع كان جبانًا تعسًا في قرارة قلبه. كان من بين أولئك الذين يعبدون زفيركوف يتودد إليه بغية مأرب أو غاية وكثيرًا ما كان يقترض منهِ نقودًا. أما الزائر الثانِي وهو ترودوليوبوف فلم يكن ثمة ما يميزه، كان

شابًّا طويل القامة منخرطًا في سلك العسكرية ذا وجه بارد يميل إلى النزاهة مع أنه كان يعشق النجاح في كل صورة من صوره ولم يكن يفكر إلا في الترقية. كما كان يمت إلى عائلة زفيركوف بقرابة بعيدة وكانت تلك الحقيقة على الرغم مما يبدو فيها من سخف تضفي عليه أهمية معينة بيننا. وكنت دائمًا لا أعني شيئًا على الإطلاق في نظره. أما سلوكه نحوي فكان محتملًا رغم خلوه من المجاملة إلى حد ما.
قال ترودوليوبوف: "حسنًا. إذا ما دفع كل منا سبعة روبلات فيكون مجموع ما يدفعه ثلاثتنا واحدًا وعشرين روبلًا، ينبغي لنا بهذا المبلغ أن نحصل على عشاء فاخر فيزفيركوف لن يدفع شيئًا بالطبع".
فحسم سيمونوف الموقف قائلًا: "طبعا لا. بما أننا قد دعوناه".
فقاطعه فيرفيتشكين في حرارة وغرور كخادم وقح يفاخر بنياشين سيده الجنرال قائلًا: هل في وسعكم أن تتخيلوا أن زفيركوف سيتركنا نقوم بالنفقات وحدنا؟ إنه سيقبل ذلك مجاملة لنا ولكنه سيأمر بنصف دستة من زجاجات الشمبانيا. فقال ترودوليوبوف الذي لم يستلفت نظره إلا نصف الدستة: وهل نحتاج نحن الأربعة إلى نصف دستة؟
فقال سيمونوف الذي كان قد طلب إليه القيام بالترتيبات اللازمة مختتمًا الحديث نهائيًّا: "إذن فالأشخاص هم ثلاثتنا والرابع زفيركوف. والمبلغ واحد وعشرون روبلًا والمكان فندق دي باري والزمن الساعة الخامسة غدًا".
فقلت في شيء من الاضطراب مصطنعًا الشعور بالإهانة: "كيف يكون المبلغ واحدًا وعشرين روبلًا؟ مع أنكم لو أدخلتموني في حسابكم لما كان المبلغ واحدًا وعشرين روبلًا بل ثمانية وعشرين".
لقد بدا لي أن دعوتي لنفسي على هذه الصورة المفاجئة غير المتوقعة هي الكياسة بعينها وأنني بذلك سأفحمهم جميعًا في التو فينظرون إليَّ في احترام.
فقال سيمونوف دون أن يظهر عليه أثر للسرور بل يبدو أنه كان يتجنب النظر إليَّ: "أتريد أن تنضم إلينا أيضًا؟".
لقد كان يعرفني تمامًا. ولشدَّ ما أثارني أنه كان يعرفني على هذه الصورة الدقيقة.
قلت والدم يغلي في عروقي من جديد: "ولم لا؟ أعتقد أنني زميل قديم له أيضًا ويجب أن أعترف أنني أشعر بالإساءة لاستبعادي".
فقال فيرفيتشكين في خشونة: "وأين يمكننا العثور عليك؟".
وأردف ترودوليوبوف مقطِّبًا جبينه قائلًا: "كما أنك لم تكن قط على صلة طيبة بزفيركوف".
ولكنني كنت قد تشبثت بالفكرة ولن أتنازل عنها.
فأجبت بصوت مرتعش كأن حدثًا جللًا قد وقع: "يبدو لي أنه ليس من حق أحد أن يبدي في ذلك رأيًا. قد يكون هذا هو السبب فيما أرغب فيه الآن. إنني لم

أكن دائمًا على علاقة طيبة".
فسخر ترودوليوبوف قائلًا: "لا سبيل إلى فهمك.. مع هذه الأساليب الرقيقة المهذبة".
فقرر سيمونوف وهو يخاطبني قائلًا: "إذن فسنضع اسمك. وموعدنا غدًا في الساعة الخامسة في فندق دي باري".
فقال فيرفيتشكين في صوت خفيض مشيرًا إليَّ وهو يخاطب سيمونوف:
- "وماذا عن النقود؟".
ولكنه ما لبث أن انقطع عن الحديث لأن سيمونوف نفسه كان قد تولاه الارتباك.
فقال ترودوليوبوف وهو ينهض واقفًا: "يكفي هذا. فليحضر معنا ما دام يرغب في ذلك إلى هذا الحد".
فقال فيرفينكشين في غضب وهو يلتقط قبعته أيضًا: "ولكنه أمر خاص بيننا نحن الأصدقاء. وليس اجتماعًا رسميًّا. فقد لا نريد قط..".
ثم انصرفا ولكن فيرفيتشكين لم يحيِّني مطلقًا عند انصرافه. أما ترودوليوبوف فإنه لم يكد ينحني لي. وكان سيمونوف الذي بقيت معه في خلوة غاضبًا مرتبكًا وراح ينظر إليَّ على نحو غريب. لم يجلس ولم يطلب إليَّ ذلك.
بل تمتم قائلًا في ارتباك: "هـ. م.. نعم.. إذن فإلى الغد. هل تدفع اشتراكك الآن؟ إني اسألك للعلم فحسب".
فعلت وجهي حمرة قاتمة وتذكرت عندئذ أنني مدين لسيمونوف بخمسة عشر روبلًا منذ زمن بعيد، ولكنني لم أنسها قط رغم أنني لم أدفعها.
- "إنك تعلم يا سيمونوف أنني عندما جئت إلى هنا لم تكن لديَّ ثمة فكرة.. ولشد ما يغضبني أنني نسيت..".
- "حسنًا. حسنًا لا أهمية لهذا، بوسعك أن تدفع غدًا بعد العشاء. كل ما هنالك أنني أردت أن أعلم.. أرجو ألا..".
وانقطع عن الكلام ثم بدأ يذرع الغرفة وقد استبد به الغضب. ثم بدأ يضرب الأرض بعقبه أثناء سيره.
فسألته قائلًا بعد فترة صمت استمرت دقيقتين: "هل أعوقك عن شيء؟"
فجفل قائلًا: "أوه!" أقصد: "نعم إذا شئت الصدق. فيجب أن أذهب لزيارة شخص ما؟" ثم أردف قائلًا في لهجة معتذرة وهو خجل بعض الشيء:
- "ليس بعيدًا من هنا".
فصحت ممسكًا بقبعتي بطريقة منطلقة على صورة مدهشة كانت آخر ما أتوقعه من نفسي قائلًا: "يا إلهي. ولمَ لمْ تقل ذلك؟".
فعاد سيمونوف يقول وهو يرافقني إلى الباب الأمامي في اهتمام لم يناسبه مطلقًا: "إنه قريب من هنا. على بعد خطوات". ثم صاح ورائي وأنا أهبط الدرج

قائلًا: "إذن فموعدنا غدًا في الساعة الخامسة تمامًا". كان فرحًا جدًّا بالتخلص مني. أما أنا فكنت في غضب شديد.
عجبت لنفسي وأنا أطحن أسناني أثناء سيري المسرع في الطريق قائلًا لنفسي: "ما الذي تملكني؟ ما الذي تملكني لأفرض نفسي عليهم؟ ومن أجل نذل خنزير كزفيركوف؟ يحسن بي ألا أذهب بالطبع. لابد أن أفرقع أصابعي في وجوههم احتقارًا. فلست مقيدًا بشيء على الإطلاق. سأرسل كلمة إلى سيمونوف مع بريد الغد..".
ولكن الذي أثار سخطي حقًّا هو يقيني من أنني ذاهب ومن أنني سأجد مبررًا للذهاب. وكلما كان ذهابي تنقصه الكياسة واللياقة زاد يقيني من أنني ذاهب.
وكانت هناك عقبة مؤكدة في سبيل ذهابي. فلم تكن لديَّ نقود. كل ما كان معي تسعة روبلات عليَّ أن أعطي الخادم أبولون منها سبعة. وهي أجره الشهري. كان هو كل ما أدفعه إليه. وكان عليه أن يعول نفسه.
وكان من المستحيل ألا أدفع له أجره بالنظر إلى شخصيته. ولكنني سأتكلم عن هذا الشخص بل هذا البلاء في وقت آخر.
ومع ذلك فكنت أعلم أنني ذاهب وأنني لن أدفع إليه أجره.
وفي تلك الليلة تراءت لي أبشع الأحلام. ولا عجب فقد ظللت طيلة المساء فريسة لذكريات الأيام التعسة التي قضيتها في المدرسة ولم أستطع التخلص منها. فقد أرسلني إلى المدرسة بعض أقربائي الذين تربطني بهم قرابة بعيدة وكنت أعتمد عليهم ولم أسمع عنهم منذ ذلك الحين. أرسلوني إلى هناك فتًى صامتًا حزينًا حطمته ملامتهم وأزعجته الشكوك وأصبح ينظر إلى الناس في ريب شديد. وقابلني زملائي في المدرسة بسخرياتهم القاسية الحاقدة لأنني لم أكن على غرارهم. ولكنني لم أستطع أن أتحمل تهكمهم ولا أن أخضع لهم في سرعة ذليلة كما كانوا هم يفعلون بعضهم مع بعض. فكرهتهم منذ البداية وانطويت على نفسي بعيدًا عنهم جميعًا في كبرياء وجلة جريحة حادة. كانت غلظتهم تبعث في نفسي النفور إذ كانوا يضحكون ساخرين في وجهي من هيكلي القبيح. ومع ذلك فلشد ما كانت وجوههم تنطق بالغباء. لقد كانت وجوه الطلبة في مدرستنا تبدو وكأنها تنحط وتزداد غباء على نحو غريب. فكم طالعتنا وجوه وسيمة! وما لبثت أن أصبحت منفرة بعد بضع سنين. وكنت أعجب لهم في صمت حزين حتى وأنا في السادسة عشرة من عمري. كانت تصدمني تفاهة أفكارهم وسخف اهتماماتهم وألعابهم وأحاديثهم. أما المسائل الجوهرية فكانوا لا يفهمونها. وكانت الموضوعات الأخاذة ذات التأثير العميق لا تلقى منهم اهتمامًا فلم يسعني إلا أن أعدهم أقل مني إدراكًا. لم يكن السبب في ذلك هو كبريائي الجريحة وأستحلفكم بالله ألا تقذفوا في وجهي بتلك العبارات المبتذلة التي تكررت إلى حد يبعث على الغثيان فتقولوا لي: "إنني لم أكن إلا حالمًا". بينما كانوا هم حتى في ذلك الحين يفهمون الحياة. فهم لم يفهموا شيئًا ولم تكن لديهم فكرة عن الحياة الحقيقية وأقسم أنِ ذلك

هو الذي أثار غضبي الشديد عليهم. لقد كانوا على العكس يقبلون أوضح الحقائق الدامغة بغباء بالغ بل لقد تعودوا حتى في ذلك الوقت على احترام النجاح. كانوا يضحكون بقسوة مخزية من كل حق مهضوم يحتقره الناس. ويقيسون الذكاء بحسب المراتب. كما كانوا وهم في السادسة عشرة يتحدثون عن المنصب المريح. ولا شك أن جزءًا كبيرًا من ذلك كان يرجع إلى غبائهم وإلى القدوة السيئة التي كانت تحيط بهم دائمًا في طفولتهم وصباهم. كذلك كانوا منحلين على صورة رهيبة. ولا شك أن جانبًا كبيرًا من هذا أيضًا كان تظاهرًا وادعاء. وبالطبع كانت هناك - حتى في انحلالهم الخلقي - لمحات من الشباب والنضارة. ولكن حتى تلك النضارة لم تكن جذابة إذ أنها كانت تظهر مشوبة بشيء من الخلاعة. كنت أمقتهم مقتًا شديدًا رغم أنني ربما كنت شرًّا منهم. وكانوا يقابلونني بالمثل ولم يخفوا عني بغضهم لي. ولكنني كنت حينذاك لا أرغب في حبهم. بل على العكس كنت لا أفتأ أتوق إلى تحقيرهم. وتعمدت أن أحقق كل ما يمكنني من تقدم في دراستي لأتجنب سخريتهم وشققت طريقي إلى الصدارة فبهرهم ذلك.

وفضلًا عن هذا فقد بدأوا جميعًا يدركون تدريجيًّا أنني قد قرأت من الكتب ما لا يستطيع أحد منهم أن يقرأ واستوعبت مسائل (خارجة عن مقرر الدراسة) لم يسمعوا بها من قبل. فكانوا ينظرون إليَّ نظرة سخرية ولكن تقدمي كان يبهرهم نفسيًّا وبخاصة عندما بدأ المدرسون يلحظون ذلك التقدم. فانقطعت السخرية ولكن ظل العداء واستمرت بيننا العلاقات الفاترة المتوترة. وفي النهاية لم أستطع تحمل هذا واشتد بي حنيني على مر السنين إلى المجتمع وإلى الأصدقاء. وحاولت أن أكون على علاقة ودية ببعض زملائي في المدرسة ولكن مودتي لهم كانت متوترة دائمًا بصورة أو أخرى وكانت لا تلبث أن تنتهي من تلقاء ذاتها. وحدث ذات مرة أن ظفرت فعلًا بصديق. ولكن قلبي كان قد استبد به الطغيان وأردت أن يكون لي عليه نفوذ لا حد له وحاولت أن أبث فيه الاحتقار للمحيط الذي يعيش فيه. وطالبته بأن يترفع عن هذا المحيط وينفصل عنه انفصالًا تامًّا. وأفزعته بحبي العاطفي الجارف حتى كنت أدفعه إلى البكاء والخبل. كان بسيطًا مخلصًا. ولكنه عندما أخلص لي الإخلاص كله، بدأت أمقته في الحال وصددته عني، وكأنما كان كل ما كنت أبغيه منه هو الانتصار عليه وإخضاعه لي ولا شيء غير ذلك. ولكنني لم أستطع إخضاعهم جميعًا. كما أن صديقي لم يكن قط على غرارهم! بل كان في الحقيقة استثناء (نادرًا). وكان أول ما فعلته بعد التخرج أن تنازلت عن الوظيفة الخاصة التي كان مقدرًا أن التحق بها لكي أقطع كل الصلات وألعن الماضي وأنفُضُ الغبار عن قدمي.. ولا يعلم إلا الله ما الذي جعلني بعد كل هذا أذهب إلى بيت سيمونوف.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت مبكرًا وقفزت من فراشي في اضطراب وكأن كل شيء وشيك الوقوع.. ولكنني كنت واثقًا بأن تغيرًا جذريًّا معينًا في حياتي سوف يحدث، بل إنه لا محالة حادث في ذلك اليوم. وكان كل حدث

خارجي مهمًّا كانت تفاهته. (وربما كان ذلك لندرة تلك الأحداث) لا يفتأ يشعرني كأن تغيرًا جذريًّا معينًا في حياتي يوشك أن يقع. ومع ذلك فقد ذهبت إلى مكتبي كالعادة ولكنني تسللت عائدًا إلى منزلي قبل الموعد بساعتين لأعد العدة. وخطر لي أنه من العظيم ألا أكون أول من يصل وإلا ظنوا أني قد استخفني الفرح بالمجيء. ولكن كانت هناك آلاف من أمثال هذه النقاط العظيمة التي تستحق التفكير وكانت كلها تثيرني وتطغى على عقلي. ونظفت حذائي مرة أخرى بيدي فلم يكن في الوجود شيء يمكن أن يغري أبولون بتنظيفه مرتين في اليوم إذ كان يجد في ذلك أكثر مما يتطلبه واجبه. فسرقت الفرشاة من الطرقة لأنظفه وحرصت على ألا يكتشف ذلك خشية احتقاره. ثم فحصت ملابسي بدقة وخيل إليَّ أن كل شيء يبدو باليًا رثًّا. إذ كنت قد أهملت مظهري إهمالًا شديدًا. ربما كانت بزتي الرسمية أنيقة نظيفة ولكنني لا أستطيع الذهاب لتناول العشاء في بزتي الرسمية. وأسوأ ما في الأمر أن كانت هناك على سراويلي بقعة صفراء كبيرة عند الركبة. وراودني إحساس مشؤوم بأن تلك البقعة ستجردني من تسعة أعشار كرامتي الشخصية وكنت أعلم أيضًا أنه من الضعف بمكان أن أفكر على هذه الصورة وحدثت نفسي قائلًا وقد تملكني الخوف: "ليس هذا وقت التفكير. إنني مقبل على شيء واقعي عظيم". وكنت أعلم أيضًا علم اليقين أنني حتى في ذلك الوقت كنت أغالي في تصوير الحقائق كل المغالاة. ولكن ماذا يسعني أن أفعل؟ ولم أستطع التحكم في نفسي فرحت أرتجف من الحمى. وأخذت أصور لنفسي في يأس مبلغ الفتور والازدراء اللذين سيلقاني بهما هذا (الوغد) زفيركوف وما سيشوب نظرات الأحمق ترودوليوبوف من احتقار متبلد لا سبيل إلى قهره ثم الوقاحة الجريئة التي سيضحك بها مني خلسة تلك الحشرة فيرفيتشكين لكي يصل إلى مرضاة زفيركوف وكيف سيفهم سيمونوف كل شيء فهمًا تامًّا وكيف سيحتقرني لذلة كبريائي وضعف نفسي، وأنكى من ذلك جميعه أن الوضع كله سيكون تافهًا مبتذلًا أبعد ما يكون عن المجال الأدبي.

لا شك أن خير ما يمكن عمله ألا أذهب مطلقًا ولكن ذلك كان أكثر استحالة من أي شيء آخر. فإنني إذا اضطررت إلى القيام بعمل ما أبدو وكأنني مشدود إليه. ولو عدلت عن الذهاب لسخرت من نفسي دومًا بعد ذلك قائلًا: "إذن فقد جبنت، لقد جبنت. لقد جبنت أمام شيء واقعي عظيم". ولكنني على العكس من ذلك كنت أتوق في حماس لأن أظهر لهؤلاء (الرعاع) أنني لست جبانًا قط كما كنت أبدو في نظر نفسي. وفضلًا عن ذلك فإنني حتى وأنا أعاني أشد نوبات حمى الجبن والخوف كنت أحلم بإحراز النصر والسيطرة عليهم والتأثير فيهم وأن أجعلهم صورة مني، لا لسبب إلا لسمو تفكيري وفطنتي التي لا تخفى". وهكذا يخذلون زفيركوف الذي سيتنحى جانبًا في صمت وخجل بينما أسحقه أنا سحقًا. وقد يتمِ الصلح بيننا بعد ذلك ونشرب نخب

صداقتنا التي لن تنقطع. ولكنني كنت أجد كل المرارة والمهانة في إدراكي حتى في تلك اللحظة إدراكًا تامًّا أنني لم أكن في حاجة إلى شيء من هذا في الحقيقة وأنني لم أكن أبغي سحقهم أو قهرهم أو اجتذابهم نحوي وأنني لم أكن أعبأ بالنتيجة مثقال ذرة حتى ولو حققتها فعلًا. أوه كم دعوت الله أن ينقضي هذا اليوم سريعًا! ذهبت إلى النافذة وأنا في ألم لا يطاق وفتحت الزجاج المتحرك ونظرت إلى الظلام والثلج الغزير المتساقط. وأخيرًا دقت ساعتي التعسة الصغيرة الخامسة فأمسكت بقبعتي محاولًا ألا أنظر إلى أبولون الذي كان يتوقع طيلة اليوم أن يأخذ أجره الشهري ولكنه كان من الحماقة بحيث لم يرغب في المبادرة بالحديث عنه وانسللت إلى الخارج مجتازًا الطريق بينه وبين الباب وقفزت في زلاقة فاخرة كلفتني نصف الروبل الأخير في جيبي وذهبت إلى فندق دي باري في مظهر باهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الرَّابع

كنت واثقا في اليوم السابق أنني سأكون أول الوافدين. ولكن المشكلة لم تكن في وصولي أولًا. فلم يقتصر الأمر على أني لم أستطع أن أجد الغرفة المخصصة لنا فحسب، بل وجدت أنهم لم يصلوا بعد وأن المائدة لم تكن قد أعدت. ما معنى هذا؟ علمت من الخدم بعد عدة أسئلة أن العشاء قد أُخِّر من الخامسة إلى السادسة. وقد تأيد هذا من إدارة المقصف أيضًا. وشعرت بالخجل الحقيقي من مواصلة سؤالي الخدم. لم تكن الساعة قد جاوزت النصف بعد الخامسة. إذا كانوا قد غيروا موعد العشاء فكان ينبغي عليهم على الأقل أن يبلغوني ذلك، تلك هي وظيفة البريد، لا أن يضعوني في موقف سخيف في نظر نفسي بل.. بل حتى في نظر الخدم.. وجلست وبدأ الخادم يعد المائدة واشتد إحساسي بالمهانة في وجوده. وحوالي الساعة السادسة أحضرت الشموع رغم أن مصابيح الغرفة كانت مشتعلة. ومع ذلك فلم يخطر ببال الخادم أن يحضرها فور وصولي. وفي الغرفة المجاورة كان هناك شخصان كئيبان متجهمان يتناولان عشاءهما في صمت على مائدتين مختلفتين. وكانت هناك ضوضاء شديدة بل صياح في غرفة بعيدة. وترامت إلى سمعي ضحكات جماعة من الناس وصرخات قصيرة شائنة باللغة الفرنسية. كانت هناك سيدات يتناولن العشاء. والحق أن الموقف كان يبعث على السقم. وقلما قضيت في حياتي لحظات أكثر شقاء حتى لقد بلغ بي الأمر أن استخفني فرح شديد لرؤيتهم عندما وصلوا جميعًا في تمام السادسة وكأنهم قدموا لإنقاذي ونسيت أنه كان لابد أن أظهر امتعاضي لتصرفهم.

دخلوا الغرفة وفي مقدمتهم زفيركوف. وكان من الواضح أنه أبرزهم شخصية. كانوا جميعًا يضحكون. ولكن ما أن رآني زفيركوف حتى اعتدل في وقفته قليلًا وأقبل نحوي حانيًا قامته من الخصر انحناءة طفيفة مرحة إلى حد ما في تعمد ظاهر. وصافحني على صورة ودية خلت من المغالاة في شيء من المجاملة الحذرة شأن الجنرالات وكأنه يتقي شيئًا بإعطائي يده وكنت أتصور على العكس من ذلك أنه عندما يدخل سينفجر ضاحكًا في الحال كعادته ضحكته الحادة المدوية ويبدأ في إلقاء نكاته السخيفة ودعاباته الغثة. كنت قد أعددت نفسي لها منذ اليوم السابق ولكنني لم أكن أتوقع مثل هذا التنازل ومثل هذه المجاملة الرسمية الرفيعة. وهكذا أحس بأنه يفوقني من جميع الوجوه دون شك!

وقلت لنفسي: "إذا كان قد قصد إهانتي بتلك اللهجة الرسمية الرقيعة فقد يهون الأمر. ففي وسعي أن أردها له بطريقة أو أخرى. ولكن كيف يكون الشأن لو كان هذا الأحمق يظن حقًّا وبلا أدنى رغبة في الإساءة إلى أنه أرفع

قدرًا مني فلا يستطيع أن ينظر إليَّ إلا بهذا الأسلوب المترفع؟ لقد فزعت لمجرد هذا الفرض!".
ثم بادرني بقوله في ثأثأة وهو يمط ألفاظه وهذا أمر لم أعهده فيه من قبل: "لقد أدهشني أن أسمع عن رغبتك في مشاركتنا. إننا لم نتقابل منذ زمن بعيد. فأنت تبتعد عنا بلا مبرر. فلسنا أشرارًا إلى هذا الحد كما تظن. وعلى أية حال فإنه ليسعدني أن نجدد صداقتنا".
ثم استدار في غير اكتراث ليضع قبعته على قاعدة النافذة.
سألني ترودوليوبوف قائلًا: "هل انتظرت طويلًا؟".
فأجبته بصوت عالٍ في ضيق ينذر بالانفجار قائلًا: "لقد جئت في الساعة الخامسة كما قلتم لي أمس".
فقال ترودوليوبوف مخاطبًا سيمونوف: "ألم تخبره بتغيير الموعد؟".
فأجاب الأخير دون أن يبدو عليه الأسف قائلًا: "لا. لقد نسيت".
ثم ذهب ليأمر لنا بفاتح الشهية Hors d’oeuvres دون أن يعتذر لي.
صاح زفيركوف ساخرًا لأن ذلك كان في نظره أمرًا مضحكًا للغاية: "إذن فقد انتظرت هنا ساعة كاملة؟ أوه يا لك من تعس!".
وتبعه الوغد فيرفيتشكين بضحكته الصفراء الصغيرة المكتومة التي تشبه نباح الجرو فقد بدا له موقفي مضحكًا محرجًا.
فصحت في فيرفيتشكين وقد اشتد تبرمي قائلًا: "ليس في هذا ما يضحك قط! فلم يكن ذلك خطئي بل خطأ غيري. لقد تغاضوا عن إبلاغي.. إنها.. إنها لحماقة فحسب".
فتمتم ترودوليوبوف منتصرًا لي في سذاجة قائلًا: "إنها ليست حماقة فحسب بل هي شيء أكبر من الحماقة، بل هي شيء آخر غير ذلك، إنك مترفق في التعبير.. إنها وقاحة فحسب.. ولكنها غير مقصودة بالطبع. وكيف يمكن أن سيمونوف.. هـ. م.
فقال فيرفيتشكين: "لو أن لعبة كهذه دُبِّرت لى إذن لـ..
فقاطعه زفيركوف قائلًا: "ولكن كان الواجب أن تأمر بشيء لنفسك. أن تطلب عشاءك دون انتظارنا".
فصحت قائلًا: "اسمح لي لقد كان من الممكن أن أفعل ذلك دون استئذانك. وإذا كنت قد انتظرت فإن ذلك..".
وصاح سيمونوف قادمًا: "فلنجلس أيها السادة. كل شيء على أهبة الاستعداد. أما عن الشمبانيا ففي وسعي أن أكون مسؤولًا عنها. إنها مثلجة تمامًا..".
ثم استدار فجأة نحوي ولكن بدا عليه مرة أخرى أنه يتجنب النظر إليَّ، قائلًا: "أنت ترى أنني لم أكن أعرف عنوانك. فأين كان يمكنني البحث عنك؟" كان من الواضح أن لديه حفيظة ضدي. ولا بد أنها ترجع إلى ما حدث أمس. جلس الجميع وجلست أنا أيضًا. كانت مائدة مستديرة. فكان ترودوليوبوف على

يساري وسيمونوف على يميني. أما زفيروكوف فكان يجلس في مواجهتي وإلى جانبه فيرفيتشكين الذي أخذ مكانه بينه وبين ترودوليوبوف.
واصل زفيركوف حديثه ملتفتًا إليَّ قائلًا: "قل لي هل أنت.. في وظيفة حكومية؟".
ولكنه عندما رأى ارتباكي فكر جِديًّا أنه ينبغي عليه أن يجاملني وأن يرفع من روحي المعنوية إذا صح هذا التعبير.
ففكرت في غضب قائلًا: "هل يزيدني أن أقذفه بزجاجة في رأسه؟" إذ كنت في ذلك الوسط الجديد على استعداد غير طبيعي للسخط والثورة.
فأجبته في حركة عصبية وعيناي على صحفتي: "فى مكتب.. ن".
- "وهل لديك منصب مريح؟ أقول ما الذي جعلك تترك وظيفتك الأصلية؟"
فرحت أمط الألفاظ أكثر مما يفعل هو وأنا لا أكاد أتحكَّم في نفسي قائلًا: "إن الذي جعلني أفعل ذلك هو أنني أردت أن أترك وظيفتي الأصلية".
فانفجر فيرفيتشكين في قهقهة مدوية. ونظر إلى سيمونوف ساخرًا. وتوقف ترودوليوبوف عن تناول الطعام وراح ينظر إليَّ في فضول.
فجفل زفيركوف ولكنه حاول ألا يلحظ ذلك.
- "وأتعابك؟"
- "أية أتعاب؟"
- "أقصد مرتبك؟"
- "لماذا تستجوبني..؟"
ومع ذلك فقد أخبرته في الحال بمرتبي. وحال لون وجهي إلى حمرة ثانية.
فقال زفيركوف في عظمة وجلال: إنه ليس مرتبًا مجزيًا.
وأردف فيرفيتشكين قائلًا في وقاحة: "نعم. فليس في وسعك بهذا المرتب أن تتحمل نفقات عشائك في المطاعم".
وقال ترودوليوبوف في تجهم: "إنه في رأيي ضئيل جدًّا".
وأردف زفيركوف قائلًا وفي صوته رنة حقد وكراهية وهو يتفحصني بعينيه وينعم النظر في ملابسي في نوع من العطف الذي تشوبه الوقاحة: "ولشد ما نَحفت! ولشد ما تغيرت!".
وصاح فيرفيتشكين ضاحكًا ضحكته المكتومة: "أوه! لا تخجلوه..".
وأخيرًا انفجرت قائلًا: "سيدي العزيز اسمح لي أن أقول لك إنني لست خجلًا! أتسمعني؟ فإني أتناول عشائي في هذا المطعم على نفقتي الخاصة لا على نفقة غيري، فلتلاحظ هذا يا سيد فيرفيتشكين".
فهب فيرفيتشكين في وجهي قائلًا وقد احمر لونه كالجمبري وهو ينظر في وجهي غاضبًا: "ماذا؟ أليس كل شخص هنا يتناول عشاءه على نفقته الخاصة؟ يبدو أنك..".
فأجبته يخالجني شعور بأنني تجاوزت الحد: "حقًّا. وأظن أنه يحسن أن نتحدث فيمِا هو أهم مِن ذلك".

- "أظنك تريد أن تستعرض ذكاءك؟".
- "لا تنزعج. فإن ذلك لا يتفق مطلقًا مع هذه الجلسة..".
- "لماذا تصيح على هذه الصورة يا سيدي الكريم؟ هه؟ هل أفقدك العمل صوابك؟".
وهنا صاح زفيركوف في نبرة آمرة قائلًا: "كفى يا سادتي كفى!".
وتمتم سيمونوف قائلًا: "يا للسخف!".
فقال ترودوليوبوف موجهًا الخطاب إليَّ وحدي: إنه لسخف حقًّا، لقد التقينا هنا مجموعة من الأصدقاء لإقامة عشاء وداع الزميل لنا فأدخلتنا أنت فى مُشادَّة. لقد دعوت نفسك لتشاركنا فلا تعكر صفو الانسجام العام.
فصاح زفيركوف قائلًا: "كفى. كفى! كفُّوا عن ذلك يا سادتي. فإنه لا يليق بنا. الأجدر بكم أن تدعوني أقص عليكم كيف أوشكت على الزواج أول أمس..".
ثم تلت ذلك قصة عابثة وصف فيها هذا السيد كيف أوشك على الزواج قبل ذلك بيومين. ومع هذا فلم ترد كلمة واحدة عن الزواج ولكن القصة كانت مزينة بأسماء الجنرالات والكولونلات والنبلاء بينما كان زفيركوف هو الشخصية البارزة بينهم تقريبًا. وقوبلت القصة بضحكات الإعجاب والاستحسان أما فيرفيتشكين فقد ضج بالضحك المدوي.
لم يُعِرْني أحد اهتمامه فجلست مدحورًا مهينًا.
وحدثت نفسي قائلًا: "يا إلهي كيف يمكن أن أصادق هؤلاء؟ ومع ذلك فلشد ما جعلت من نفسي أضحوكة أمامهم وجعلت فيرفيتشكين يتجاوز الحد! أيتخيل هؤلاء الحيوانات أنهم يشرفونني بالسماح لي بأن أجلس معهم؟ إنهم لا يفهمون أنه شرف لهم لا لي! لقد نحفت! وملابسي! وسراويلي عليها اللعنة لقد لاحظ زفيركوف البقعة الصفراء حالما دخل الغرفة.. ولكن ما الفائدة؟ يجب أن أنهض في الحال في هذه الدقيقة بالذات وأتناول قبعتي ثم أذهب دون أن أنطق بكلمة.. في احتقار! وغدًا أستطيع أن أرسل خطاب تحد للمبارزة. الأنذال! قد يذهب بهم الظن إلى أنني أعبأ بالسبعة روبلات، عليهم اللعنة! إني لا أعبأ بالسبعة روبلات. وسأذهب في هذه الدقيقة".
وبقيت في مكاني بالطبع ورحت أملأ الأقداح بالشِّري واللافيت وأشربها الواحد تلو الآخر من شدة الضيق. ولمَّا كنت لا أشرب كثيرًا فسرعان ما أحسست بأثرها. وكلما صعدت الخمر إلى رأسي زاد انزعاجي. وتاقت نفسي في الحال إلى إهانتهم جميعًا على صورة أشد ما تكون قسوة وتشهيرًا وإلى مغادرة المكان بعد ذلك. أردت أن أنتهز الفرصة وأريهم ما أستطيع أن أفعله لكي يقولوا إنه بارع رغم حماقته: "و.. و.. فلتنزل اللعنة بهم جميعًا!".
تفحصتهم في وقاحة بعينيَّ الثقيلتين. ولكن بدا عليهم أنهم قد نسوني تمامًا. وأخذوا يصخبون ويمرحون. وراح زفيركوف يتكلم طيلة الوقت. وبدأت أصغي له. كان زفيركوف يتحدث عن سيدة تفيض بالمرح والحيوية جعلها في النهاية تكاشفه بحبها (ولا شكِ أنه كان كذابًا أشرًا) وروى أن صديقًا حميمًا له يدعى

الأمير كوليا وكان ضابطًا في الفرسان يملك ثلاثة آلاف من العبيد قد قدم إليه يد المساعدة في هذا الموضوع.
فإذا بي أقول مقاطعًا: ومع ذلك فإن كوليا هذا الذي يملك ثلاثة آلاف من العبيد لم يأتِ الليلة هنا لتوديعك.
وساد الصمت لحظة. ثم تنازل ترودوليوبوف ولاحظ وجودي في النهاية وهو ينظر نحوي قائلًا في ازدراء: "لقد لعبت الخمر برأسك" وراح زفيركوف يتفحصني دون أن ينطق بكلمة وكأنني حشرة صغيرة فغضضت من طرفي بينما أسرع سيمونوف يملأ الأقداح بالشمبانيا.
ورفع ترودوليوبوف قدحه وكذلك فعل الجميع ما عداي.
ثم صاح قائلًا لزفيركوف: "نخب صحتك وتمنياتنا لك بحسن الحظ في رحلتك، نخب الأيام الخوالي ونخب المستقبل".
واحتسى الجميع أقداحهم ثم تزاحموا حول زفيركوف ليقبلوه. ولم أتحرك من مكاني. وظل قدحي مملوءًا لم يمس.
فزأر ترودوليوبوف قائلًا وقد نفد صبره فتحول نحوي متوعدًا: "ألا تشرب قدحك؟".
فقلت أريد أن ألقي كلمة: "وحدي بالأصالة عن نفسي فحسب.. ثم أحتسيه بعد ذلك يا سيد ترودوليوبوف".
فتمتم سيمونوف قائلًا: "أيها الوحش الحقود!" فاعتدلت في مقعدي وأمسكت بقدحي كالمحموم ثم تأهبت لشيء ما خارج عن المألوف رغم أنني لم أكن أعلم أنا نفسي بالضبط ما سأقوله.
ثم صاح فيرفيتشكين قائلًا: "فلتصمتوا! لنسمع الآن استعراضًا للذكاء!".
وانتظر زفيركوف في تجهم شديد فقد كان يدرك ما سيحدث.
وبدأت كلامي قائلًا: "سيدي الملازم زفيركوف. دَعْني أقول لك إنني أكره العبارات الرنانة كما أكره أصحابها والمتخنِّثين من الرجال.. هذه هي النقطة الأولى وتليها نقطة ثانية".
فسرت همهمة بين الجميع.
"والنقطة الثانية هي أنني أكره الفحش في القول وأكره الناطقين به. ولا سيما الناطقين به أما النقطة الثالثة فإني أحب العدل والصدق والنزاهة". ثم واصلت حديثي بطريقة آلية تقريبًا إذ أنني كنت قد بدأت أنا نفسي أرتجف رعبًا. ولم أدرِ كيف صرت أتحدث على هذه الصورة. "إني أحب الفكر يا سيد زفيركوف والزمالة الحقة على قدم المساواة لا.. هـ. م.. إني أحب.. ومع ذلك فلم لا؟ سأشرب أنا أيضًا نخب صحتك يا سيد زفيركوف. فلتغرر بالفتيات الشركسيات ولتقتل أعداء الوطن و..و.. نخب صحتك يا سيد زفيركوف!".
فنهض زفيركوف من على مقعده وانحنى لي قائلًا: "إني شاكر لك حقًّا".
لقد أسيء إساءة بالغة فامتقع وجهه.
وزأر ترودوليوبوف هاويًا بقبضته على المائدة قائلًا: "عليك اللعنة!".

وصرخ فيرفيتشكين قائلًا: "إنه يريد لكمة في وجهه جزاء له على هذا".
وتمتم سيمونوف قائلًا: "ينبغي أن نطرده".
وصاح زفيركوف في وقار كابحًا جماح ذلك السخط العام قائلًا: "لا تنطقوا بكلمة أيها السادة ولا تأتوا بحركة إني أشكركم جميعًا ولكنني أستطيع أن أريه أنا نفسي أية قيمة أعلقها على كلماته".
فقلت بصوت عالٍ مستديرًا نحو فيرفيتشكين: "ستلقاني غدًا لما قلته الآن".
فأجابني قائلًا: "تعني مبارزتي؟ بالتأكيد".
ولعلي وأنا أتحداه كنت مثيرًا للسخرية فقد كان ذلك يتناقض مع مظهري إلى حد جعلهم جميعًا وبينهم فيرفيتشكين يستلقون من الضحك.
فقال ترودوليوبوف في اشمئزاز: دعوه لشأنه! إنه مخمور تمامًا.
وتمتم سيمونوف مرة أخرى قائلًا: "إني لن أغفر لنفسي السماح له بأن ينضم إلينا".
وحدثت نفسي قائلًا: "لقد حان الوقت لأقذف بزجاجة في وجوههم".
فالتقطت زجاجة.. وملأت قدحي.. وظللت أحدث نفسي قائلًا: "لا. يحسن بي أن ألبث هنا حتى النهاية! فإنكم ستسرون لرحيلي أيها الأصدقاء. لن يغريني شيء بالرحيل. سألبث هنا وأواصل الشراب لأن هذا مكان عام وقد دفعت أجر دخولي سأمكث هنا وأشرب لأنني أعدكم قطع شطرنج من تلك القطع الهامدة التي خلت من الحياة. سأجلس هنا وأشرب.. بل وأغني إذا شئت. نعم أغني إذ أنه من حقي أن.. أن أغني.. هـ.م".
ولكنني لم أغنِّ.. بل حاولت فقط أن أتجنب النظر إليهم. فتجاهلت وجودهم تمامًا وانتظرت بفروغ الصبر أن يبادروا هم بالحديث. ولكن وا أسفاه فإنهم لم يخاطبوني! أوه كم تمنيت! كم تمنيت في تلك الآونة أن نسوي ما بيننا من خلاف! ودقت الساعة الثامنة ثم التاسعة في النهاية. وانتقلوا من المائدة إلى الأريكة. وتمدد زفيركوف على مقعد وثير ثم وضع إحدى قدميه على منضدة مستديرة. وأحضر النبيذ. فقد أمر زفيركوف بثلاث زجاجات على حسابه الخاص. ولم أُدع أنا بالطبع للانضمام إليهم. وأحاطوا به جميعًا على الأريكة. وراحوا ينصتون له فيما يشبه التبجيل وكان من الواضح أنهم مشغوفون به. وتعجبت قائلًا لنفسي: "لماذا؟ لماذا؟" وكانوا بين الحين والحين يأخذهم حماس الخمر فيقبل بعضهم بعضًا. وراحوا يتحدثون عن القوقاز وعن طبيعة الحب الحقيقي وعن المناصب المريحة في الجيش وعن دخل أحد الفرسان ويدعى بودهارزفسكي الذي لم يكن يعرفه أحد منهم معرفة شخصية وتهللوا لضخامة هذا الدخل كما تحدثوا أيضًا عن رشاقة الأميرة "ر" وجمالها الخارقين للعادة. ولم يكن أحد منهم قد وقع بصره عليها ثم انتهى بهم الحديث إلى خلود شكسبير.
فابتسمت في احتقار ورحت أذرع الجانب الآخر من الغرفة جيئة وذهابًا في مِواجهة الأريكة من المائدة إلى الموقد. ولقد بذلتِ قصارى جهدي لأريهم أنني

أستطيع الاستغناء عنهم ومع ذلك فقد تعمدت أن أحدث ضوضاء بحذائي ضاربًا الأرض بعقبي. ولكن عبثًا حاولت. إذ أنهم لم يعيروني اهتمامًا. وقد أوتيت من الصبر ما جعلني أظل أمامهم في غدو ورواح من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة في نفس المكان من المائدة إلى الموقد ثم أعود مرة أخرى. ورحت أحدث نفسي قائلًا: "إنى أغدو وأروح كما أشاء ولا يستطيع أحد أن يمنعني من ذلك". وكان الخادم الذي يدخل في الغرفة يتوقف من وقت لآخر لينظر إليَّ. وكنت أشعر ببعض الدوار من كثرة غدوي ورواحي وبدا لي في بعض اللحظات أنني أهذي. وقد تصبب بدني كله عرقًا ثلاث مرات في أثناء هذه الساعات الثلاث وكانت ملابسي في كل مرة تبتل بهذا العرق. ثم تجف مرة أخرى. وفي بعض الأحيان كنت أشعر بطعنات في قلبي يصحبها ألم حاد عندما كان يخطر ببالي أنني سأذكر بعد مضي عشر سنين أو عشرين سنة أو قل أربعين سنة نعم سأذكر في مقت ومهانة حتى بعد مضي أربعين سنة تلك اللحظات التي كانت أقذر لحظات حياتي وأبشعها وأكثرها استثارة للسخرية. إذ ما كان يمكن لأحد أن يتكبد من العناء ما يحط من قدر نفسه على صورة أكثر صفاقة ووقاحة. مع أنني أدركت ذلك إدراكًا تامًّا، نعم تامًّا، إلا أنني واصلت خطوي ذهابًا وجيئة من المائدة إلى الموقد. "آه لو علمتم ما أستطيعه من فكر وشعور وما بلغته من ثقافة!" هكذا رحت أحدث نفسي في بعض اللحظات موجهًا خطابي الباطني إلى الأريكة التي كان يجلس عليها خصومي ولكنهم كانوا يتصرفون وكأني لا وجود لي في الغرفة. ولم يتجهوا نحوي إلا مرة - مرة واحدة فقط - وذلك عندما كان زفيركوف يتحدث عن شكسبير وأطلقت فجأة ضحكة ازدراء. وكانت ضحكتي على صورة مصطنعة منفرة إلى حد جعلهم يتوقفون عن حديثهم في الحال ويراقبونني في صمت وتجهم مدة دقيقتين، وأنا أغدو وأروح من المائدة إلى الموقد دون أن أعيرهم انتباهًا. ولكن ذلك لم يتمخَّض عن شيء ما! فلم ينبسوا بكلمة. وبعد مضي دقيقتين انصرفوا عني جميعًا مرة أخرى ودقت الساعة الحادية عشرة.

فصاح زفيركوف وهو ينهض عن الأريكة، قائلًا: "أيها الأصدقاء فلننصرف جميعًا الآن. هيا!"

ووافق الجميع قائلين: "طبعًا. طبعًا."

وتحولت فجأة نحو زفيركوف. لقد بلغ بي الضجر والإعياء مبلغًا جعلني على استعداد لأن أقتل نفسي لأضع حدًّا لهذا العذاب. كنت محمومًا وقد التصق شعري المبلل بالعرق بجبيني وصدغي.

قلت فجأة في تصميم: زفيركوف إني أرجو عفوك. وأنت كذلك يا فيرفيتشكين. وعفوكم جميعًا. عفوكم كلكم. فلقد أهنتكم جميعًا!".

فقال فيرفيتشكين في صوت يقطر سمًّا: "آه! إنك أبعد ما تكون عن المبارزة أيها الصديق العزيز!".

فأحسست لذلك بألم حاد في قلبي.

فقلت له: "ليست المبارزة هي التي أخشاها يا فيرفيتشكين! فأنا على استعداد لمقاتلتك غدًا بعد أن يتم الصلح بيننا. إني أصر على ذلك في الحقيقة. ولا يمكنك الرفض. فإني أريد أن أريك أنني لا أخشى المبارزة. ستطلق النار أنت أولًا وسأطلق النار أنا في الهواء.
فقال سيمونوف: "إنه يواسي نفسه".
وقال ترودوليوبوف: "إنه يعرف".
وأجابني زفيركوف في احتقار قائلًا: "ولكن دعنا نمر. لماذا تعترض الطريق؟ ماذا تريد؟".
كانت وجوههم جميعًا محمرة وعيونهم لامعة فقد أفرطوا في الشراب.
قلت: "إني أطلب صداقتك يا زفيركوف. لقد أهنتك ولكن..".
فقال: "أهنتني؟ أنت أهنتني أنا؟ فلتعلم يا سيدي أنه ليس في إمكانك إهانتي بحال من الأحوال".
واختتم ترودوليوبوف الحديث قائلًا: "يكفيك هذا. فلتتنح عن الطريق!".
وصاح زفيركوف قائلًا: "أيها الأصدقاء إن أوليمبيا من نصيبي. فقد تم الاتفاق على ذلك!".
فأجابه الباقون ضاحكين: "لن نتجادل في حقك. لن نتجادل في حقك".
وقفت في مكان وكأنهم بصقوا عليَّ. وخرج الجميع من الغرفة في صخب وضوضاء.
وراح ترودوليوبوف يغني أغنية سخيفة بينما تخلف سيمونوف لحظة لينفح الخدم بقشيشهم فنشبت إليه فجأة وقلت له في تصميم اليائس. سيمونوف! أعطني ستة روبلات!
فنظر إليَّ في دهشة بعينين زائغتين. فقد كان هو أيضًا مخمورًا.
وسألني قائلًا: "هل تعني أنك قادم معنا!".
فقلت: "نعم".
فصاح قائلًا: "ليس لديَّ نقود".
ثم خرج من الغرفة وهو يطلق ضحكة ازدراء.
فتشبثت بمعطفه، لقد كان الأمر كالكابوس.
وقلت له: "سيمونوف لقد رأيت معك نقودًا. لماذا ترفض إعطائي؟ هل أنا وغد؟ حذار أن ترفض طلبي، ليتك تعلم! ليتك تعلم لماذا أطلب مِنْكَ نقودًا! إن مستقبلي بأسره، بل إن جميع خططي تتوقف عليها!".
فأخرج النقود وكاد يقذف بها في وجهي.
وقال بلا شفقة أو رحمة: "خذها ما دمت لا تعرف الحياء ثم ركض إلى الخارج ليلحق بهم.
وبقيت وحدي لحظة. فرأيت الفوضى تسود المكان. كانت هناك بقايا عشاء وقدح نبيذ مهشم على الأرض. ونبيذ مهراق وأعقاب سجائر وكانت في رأسي

أبخرة شراب وهذيان وفي قلبي تعاسة ممضَّة وأخيرًا كان هناك الخادم الذي رأى كل شيء وسمع كل شيء وراح ينظر في وجهي في استطلاع وفضول.

صحت قائلًا: "إني ذاهب إلى هناك! فإما أن يجثوا أمامي راجين صداقتي أو أصفع زفيركوف على وجهه!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

وتمتمت قائلًا وأنا أهبط الدرج ركضًا: "إذن فهذا هو. هذا هو في النهاية الاتصال بالواقع. إنه يختلف تمامًا عن انسحاب البابا من روما وذهابه إلى البرازيل، إنه يختلف تمامًا عن تلك الحفلة الراقصة على شواطئ بحيرة كومو". وأومض في ذهني خاطر يقول: "إنك وغد إذا كنت تضحك من هذا الآن". فصحت مجيبًا نفسي: "لا أهمية لذلك! فقد ضاع الآن كل شيء!".
لم أعثر لهم على أثر ولكنني لم أعبأ لذلك، فقد كنت على علم بمكانهم. وكان يقف وحيدًا عند نهاية الدرج سائق مركبة ليلية يرتدي سترة ريفية خشنة علاها الثلج المتساقط المبتل الذي كان يبدو دافئًا. فقد كان الجو ساخنًا مشبعًا بالبخار. أما الحصان الملون الصغير ذو الشعر الغزير فقد كساه الثلج هو أيضًا وتولته نوبة من السعال. إني أذكر ذلك جيدًا. واندفعت نحو المركبة الخشنة ولكنني ما كدت أرفع قدمي لأدخل فيها حتى تذكرت كيف أعطاني سيمونوف الروبلات الستة فبدا لي أن ثقلي قد تضاعف وارتميت كالغرارة داخل المركبة.
وصحت قائلًا: "لا. يجب أن أفعل الكثير لأعوض عن كل هذا. فإما ذلك أو الموت في الحال هذه الليلة بالذات: تحرك! وانطلقت العربة. وكان في رأسي دوار شديد".
- "إنهم لن يجثوا أمامي راجين صداقتي. إنه سراب. سراب رخيص منفر رومانتيكي وخيالي. إنه حفل راقص آخر على بحيرة كومر. وهكذا لابد من صفع زفيركوف على وجهه! إنه واجب عليَّ. (وهكذا انعقدت نيتي). إني مسرع إليه لأصفعه على وجهه! عَجِّلْ".
وراح السائق يجذب العنان.
- "سأصفعه حالما أدخل. هل ينبغي أن أقول بضع كلمات قبل صفعه على سبيل التقدمة؟ لا. فإنني سأدخل وأصفعه. سأجدهم جميعًا جالسين في غرفة الاستقبال. أما هو فسيكون جالسًا مع أوليمبيا على الأريكة. هذه الملعونة أوليمبيا! لقد ضحكت من خلقتي ذات مرة ورفضتني. سأجذب أوليمبيا من شعرها وأجذب زفيركوف من أذنيه! لا بل يحسن أن أجذبه من أذن واحدة وأجره حول المكان. قد يأخذون جميعًا في ضربي وركلي إلى الخارج. هذا محتمل جدًّا. ولكن لا أهمية لذلك؟ فإنني على أية حال سأبادر بصفعة على وجهه. سأكون أنا البادئ بالضرب. وهذا هو كل شيء بمقتضى قوانين الشرف. إن هذه الصفعة ستكون وصمة في جبينه ولن يستطيع محوها بأية لكمات. بل إنه لن يستطيع محوها إلا بالمبارزة! فسيرغم على قتالي. وليضربوني الآن. فليضربني هؤلاء التعساء الجاحدون! إن ترودوليوبوف سيكون أقساهم ضربا. فهو قوي البنية. أما فيرفيتشكين فلا شك أنه سَيُمْسِك

بي من جانبي ويجذبني من شعري. ولكن لا أهمية لذلك، لا أهمية لذلك. فلهذا أنا ذاهب. وسيضطر الأغبياء في النهاية أن يروا المأساة كلها! فعندما يجذبونني إلى الباب سأصيح فيهم قائلًا إنهم في الحقيقة لا يساوون خنصري".
ثم صحت في السائق قائلًا: "أسرع. أسرع!" ففزع السائق وضرب سوطه في الهواء فقد كانت صرختي وحشية.
- "سنتقاتل عند الفجر. هذا أمر مقضي. أما عن المكتب فقد انتهت علاقتي به. لقد هزأ به فيرفيتشكين منذ لحظة. ولكن أين يمكنني الحصول على المسدسات؟ هذا لغو فارغ! سأحصل على مرتبي مقدمًا وأبتاعها. والبارود والرصاص؟ هذا من شأن الشاهد. ولكن كيف يمكن أن يتم الأمر كله عند الفجر؟ وأين يمكن أن أحصل على شاهد؟ فليس لي أصدقاء. هذا هراء". هكذا صحت مؤججًا النار في نفسي: "ولكن لا أهمية لذلك! إذ يتحتم على أول شخص أقابله في الطريق أن يكون شاهدي كما يتحتم عليه إنقاذ غريق من الماء. قد يحدث أغرب الأشياء بل إنني حتى لو طلبت إلى مديري نفسه أن يكون شاهدي غدًا لأضطر إلى قبول ذلك وإلى كتمان السر ولو بدافع من الشهامة! إن أنطون أنطونيتش..".
والواقع أن السخف القبيح لهذه الخطة والوجه الآخر للموضوع كانا في تلك اللحظة أوضح وأجلى لمخيلتي مما يمكن أن يكونا لأي شخص في الوجود. ولكن..
- "أسرع أيها السائق أسرع أيها الوغد أسرع!".
وقال الشقي: "ما هذا يا سيدي!".
وشعرت بقشعريرة باردة تسري في بدني. "أليس الأفضل أن أذهب رأسًا إلى البيت؟ يا إلهي ما الذي جعلني أمس أدعو نفسي إلى هذا العشاء؟ ولكن لا. هذا محال. ثم غدوي ورواحي مدة ثلاث ساعات من المائدة إلى الموقد؟ كلا. فلا بد أن يدفعوا هم وحدهم دون غيرهم ثمن هذا التعذيب! لابد أن يمحوا هذه الوصمة! أسرع!".
- "وماذا يحدث لو أنهم أسلموني إلى الشرطة! ولكنهم لن يجرؤوا على ذلك! فهم سيخشون الفضيحة. وماذا يحدث لو رفض زفيركوف مبارزتي احتقارًا منه لشأني؟ لا شك في أنه سيفعل ذلك. ولكنني في هذه الحالة سأريهم.. سأذهب إلى المحطة غدًا عندما يهم زفيركوف بالرحيل وأمسك به من ساقه ثم أجذبه من سترته عندما يدخل العربة. وأغرز أسناني في يده وأعضه. انظروا إلى أي مدى يمكن أن تدفعوا برجل يائس. قد يضربني هو على رأسي وينهال عليَّ الباقون ضربًا من الخلف فأصيح في جمهرة المحتشدين قائلًا: "انظروا إلى هذا الجرو الصغير. إنه ذاهب ليأسر قلوب الفتيات الشركسيات بعد أن سمح لي بأن أبصق في وجهه!".
ولا شك أن كل شيء سينتهي بعد ذلك! فسيتلاشى مكتبي من الوجود. وسيقبض عليَّ! وأقدم إلى المحاكمة وسأطرد من الخدمة ثم أودع السجن

وأرسل إلى سيبيريا. ولكن لا عليَّ! فعندما يطلقون سراحي من السجن بعد خمسة عشر عامًا سأذهب إليه شحاذا في خرق بالية. سأجده في إحدى مدن الريف، زوجًا سعيدًا وتكون ابنته قد بلغت سن النضج.. فأقول له: "انظر أيها الوحش إلى وجهي الضامر وإلى خرقي البالية! لقد فقدت كل شيء: عملي وسعادتي كما فقدت الفن والعلم والمرأة التي أحبها. كل هذا بسببك.. هاك المسدسات. لقد جئت لأطلق مسدسي و.. وإنني.. لأعفو عنك. ثم أطلق النار في الهواء ولن تسمع شيئًا عني بعد ذلك..
لقد أوشكت الدموع فعلًا أن تطفر من عيني رغم أنني كنت أعلم تمامًا في تلك اللحظة أن كل هذا مقتبس من روايتي سيلفيو لبوشكين والحفلة التنكرية masquerade للرمونتوف واعتراني في الحال خجل شديد، خجل جعلني أوقف السائق وأترك العربة ثم أقف ساكنًا في منتصف الطريق تحت الثلج المتساقط بينما راح السائق يحملق فيَّ متنهدًا متعجبًا.
ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ فما كان يمكن أن اذهب إلى هناك، فقد كان من الواضح سخف الفكرة وما كنت أستطيع أن أترك الأمور على حالها! وبعد كل هذه الإهانات! فصحت قائلًا "كلا!" وارتميت في المركبة مرة أخرى. إنه أمر مقضي! إنه القدر! أسرع! أسرع.
ودفعني نفاد صبري إلى أن ألكم السائق في قفاه.
فصاح الرجل الريفي قائلًا: "ماذا تنوي أن تفعل؟ ولماذا تضربني؟".
ولكنه هوى بسوطه على حصانه، فأخذ يضرب الهواء بساقيه. كان الثلج يتساقط في رقائق كبيرة ولكنني رغم ذلك فتحت أزرار سترتي. لم أذكر إلا شيئًا واحدًا ونسيت كل ما عداه، فقد صح عزمي نهائيًّا على تلك الصفعة. وأحسست في رعب شديد أنها ستحدث الآن في الحال وأنه ما مِن قوة تستطيع أن تقف دونها. وراحت مصابيح الشارع المهجورة تلمع في كآبة وسط الظلمة الغارقة في الثلج وكأنها مشاعل يحملها المشيعون في جنازة. وتسرب الثلج تحت معطفي وتحت سترتي وتحت رباط عنقي حيث ذاب. ولكنني لم أضم ملابسي، فقد ضاع كل شيء على أية حال.
وأخيرًا وصلت العربة. وقفزت منها فاقد الوعي تقريبًا ثم ركضت صاعدًا الدرج وأخذت أطرق الباب وأركله. واعتراني ضعف مخيف ولا سيما في ساقي وركبتي. وفتح الباب سريعًا وكأنهم كانوا يتوقعون قدومي. والحقيقة أن سيمونوف كان قد أخطر أصحاب المكان باحتمال وصول شخص آخر. فقد كان من الواجب في هذا المكان إخطار أهل الدار مقدمًا بالزيارة واتخاذ احتياطات معينة. فقد كانت الدار محلًّا لبيع القبعات من تلك المحال التي أغلقتها الشرطة منذ زمن بعيد. فكان يعمل كمحل أثناء النهار أما في الليل فكان من الممكن ارتياده لأغراض أخرى إذا كان هناك من يقوم بتقديم الزائر.
أسرعت الخطى خلال المحل المظلم حتى بلغت حجرة الاستقبال المألوفة حيث لم تكن هناك إلا شمعة واحدة مِشتعِلة ووقفت ساكنًا في دهشة. فلم

يكن هناك أحد. سألت شخصًا ما قائلًا: "أين هم؟" ولكن لا شك أنهم كانوا ساعتئذ قد تفرقوا. وكان يقف أمامي شخص ترتسم على وجهه ابتسامة بلهاء. إنها سيدة الدار نفسها التي كانت قد رأتني من قبل. وبعد دقيقة واحدة فتح أحد الأبواب ودخل شخص آخر.

ورحت أذرع الغرفة في خطًى واسعة دون أن أعير انتباهي شيئًا ما. وأعتقد أنني كنت أحدث نفسي، شعرت وكأنني قد أنقذت من الموت وتملكني هذا الإحساس في سرور. فقد كان في نيتي توجيه هذه الصفعة ولا شك، لا شك في أنني كنت سأفعل هذا! والآن لم يكن هناك أحد منهم و.. وقد تلاشى كل شيء وتغير! نظرت حولي. فلم أكن أدرك موقفي بعد. ونظرت في آلية إلى الفتاة التي دلفت إلى الداخل. ولمحت وجهًا ناضرًا حديث السن شاحبًا إلى حد ما ذا حاجبين سوداوين مقوسين وعينين حزينتين حائرتين انجذبت نحوهما في الحال. فلو أنها كانت تبتسم لكرهتها. وأخذت أنظر إليها بمزيد من الإمعان وكأنني أبذل جهدًا في ذلك. لم أكن قد جمعت بعد شعث خواطري وأفكاري. كان وجهها ينم عن البساطة والطيبة ولكنه متجهم على صورة غريبة. ولا شك عندي أن هذا التجهم كان يقف في طريق نجاحها في هذه الدار وأنها لم تكن تستلفت نظر هؤلاء الحمقى. ومع ذلك فما كان من الممكن أن يقال عنها إنها حسناء على الرغم من طول قامتها وقوة شخصيتها ومتانة بنيتها. كانت ترتدي زيًّا غاية في البساطة. وتحرك في نفسي شعور بغيض فتوجهت نحوها مباشرة.

ووقع بصري عرضًا على المرآة. فبدا لي وجهي المكدود منفرًا للغاية ممتقعًا غاضبًا ذليلًا يعلوه شعر أشعث. فحدثت نفسي قائلًا: "لا أهمية لذلك، فإني مسرور به، إذ يسرني أني سأبدو لها منفرًا، فذلك يعجبني".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادِس

.. وفي مكان ما خلف ستار بدأت ساعة تئز وكأنها ترزح تحت عبء ثقيل أو كأن شخصًا ما يأخذ بخناقها ثم تلا أزيزها الممتد على صورة غير طبيعية، رنينٌ حاد منفر يبدو أسرع مما يجب، وكأن شخصًا ما يقفز فجأة إلى الأمام. دقت الساعة الثانية فاستيقظت من نومي رغم أنني لم أكن في الحقيقة نائمًا بل مستلقيًا فيما يشبه الغيبوبة.

كاد الظلام الدامس يكتنف الغرفة الضيقة المخنوقة ذات السقف المنخفض التي ازدحمت بخزانة ضخمة للملابس وأكوام من علب الكرتون وجميع ألوان الزينة والأشياء التافهة المبعثرة. وكانت الذبالة المشتعلة على المنضدة توشك أن تنطفئ وأخذت شعلتها ترتعش رعشة خفيفة بين الحين والحين فلن تمر إلا دقائق معدودات حتى تسبح الغرفة في ظلام دامس.

ولم ألبث أن ثبت إلى رشدي وعاد كل شيء إلى ذهني في الحال دون أن أبذل جهدًا وكأن الأشياء كانت تكمن لي في مكان خفي لتهاجمني مرة أخرى. والحق أنه قد بدا لي أن نقطة ما في ذاكرتي ظلت باقية لا يكتنفها النسيان حتى في أثناء غيبوبتي ومن حولها طافت أحلامي في حزن وكآبة. ولكن من الغريب أن كل ما حدث لي بدا في ذلك اليوم عندما استيقظت وكأنه قد وقع في الماضي البعيد بل في الماضي السحيق وكأنني قد عشت تلك التجربة منذ زمن بعيدٍ، بعيدٍ جدًّا.

كان رأسي ممتلئًا بالأبخرة. وبدا لي أن شيئًا ما يحوم فوقي يوقظني ويثيرني ويقلقني وبدا لي أن التعاسة والحقد أخذا يصطخبان في نفسي مرة أخرى يبغيان متنفسًا. وفجأة رأيت بجانبي عينين شاخصتين تتفحصاني في فضول وإصرار وقد خلت نظرتهما الحزينة من العواطف كما بدت وكأنها بعيدة كل البعد. لقد ثقلت عليَّ تلك النظرة.

وتولدت في ذهني فكرة ما ثم سرت في بدني كله كالإحساس الرهيب الذي يشعر به المرء عندما يدخل قبوًا رطبًا عفنًا. كانت عيناها وقد بدأتا تنظران إليَّ في تلك اللحظة فقط تنمَّان عن شيء غير طبيعي. وتذكرت أيضًا أنني أثناء الساعتين الماضيتين لم أنبس بكلمة واحدة لهذه المخلوقة فقد رأيت في الحقيقة أن لا حاجة مطلقًا لذلك. والحق أن نفسي قد ارتاحت لهذا الصمت لسبب ما. ثم أدركت فجأة في وضوح تلك الفكرة المخيفة التي تتقزز لها النفس كما تتقزز من العنكبوت، فكرة الرذيلة التي تتخذ من غاية الحب الحقيقي وقمته بداية لها، عارية من كل حب في غير ما رقة أو حياء، وظللنا وقتًا طويلًا يحملق كل منا في الآخر على هذه الصورة. ولكنها لم تغض الطرف عني قبل أن أفعل أنا ذلك. وظل تعبير وجهها دون تغيير أو تبديل حتى ضقت بها ذرعًا في النهاية.

سألتها فجأة لأضع حدًّا لذلك قائلًا: "ما اسمك؟".
فأجابتني فيما يشبه الهمس ولكن في غير ما رقة قائلة: "ليزا..".
ثم حولت عينيها بعيدًا.
وتولاني الصمت.
وقلت وأنا أكاد أحدِّث نفسي واضعًا ذراعي تحت رأسي في يأس ومحملقًا في السقف: "أي طقس هذا! الثلج.. إنه يبعث في النفس النفور!".
فلم تُجِر جوابًا، وكان هذا رهيبًا.
ثم سألتها بعد دقيقة واحدة فيما يشبه الغضب محوِّلًا رأسي قليلًا نحوها قائلًا:
- "هل عشت طيلة حياتك في بطرسبرج؟".
- "لا".
- "من أيت أتيت؟".
فأجابت على مضض قائلة: "من ريجا".
- "هل أنت ألمانية؟".
- "لا بل روسية".
- "هل مضى عليك هنا وقت طويل؟".
- "أين؟".
- "فى هذه الدار".
- "خمسة عشر يومًا".
وكلما تحدثت زادت حركاتها عصبية. وانطفأت الشمعة فلم أعد أتبيَّن ملامح وجهها.
- "هل لك والدان؟".
- "نعم.. لا.. نعم لي".
- "أين هما؟".
- "هناك.. فى ريجا".
- "ماذا يعملان؟".
- "أوه لا شيء".
- "لا شيء؟ لماذا؟ من أية طبقة هما؟".
- "من طبقة أصحاب الحرف".
- "هل عشت معهما دائمًا؟".
- "نعم".
- "كم تبلغين من العمر؟".
- "العشرين".
- "لماذا تركتهما؟".
- "أوه لغير ما سبب".
وكان جوابها هذا يعني: "دعنى وشأني. إني سقيمة حزينة".
وساد الصمت بيننا.

ولا يعلم إلا الله لماذا لم أنصرف. لقد تزايد إحساسي بالسقم والحزن. وأخذت صور الأمس من تلقاء ذاتها وعلى الرغم من إرادتي تمر مسرعة بذاكرتي في اضطراب وفوضى. وفجأة تذكرت شيئًا ما رأيته في ذلك الصباح عندما كنت أهرول إلى مكتبي وقد ازدحم ذهني بأفكار قلقة.
قلت فجأة وبصوت عالٍ لا رغبة مني في مواصلة الحديث بل وكأنني أقول ذلك عرضًا: - "لقد رأيتهم بالأمس يخرجون نعشًا أوشك على السقوط منهم".
- "نعشًا؟".
- "نعم في هاي ماركت. كانوا يخرجونه من قبو".
- "من قبو؟".
- "لا من قبو، بل من بدروم. أوه أنت تعلمين.. هناك.. من أحد بيوت الدعارة. وكان المكان ينضح بالقذارة. قشر البيض والقمامة.. ورائحة العفن. كان منظرًا كريهًا."
وساد الصمت.
فبدأت قائلًا لا لشيء إلا لأتجنب الصمت: "ما أقذره من يوم ليدفن المرء فيه".
- "قذر؟ وكيف؟".
فتثاءبت قائلًا: "الثلج البلل".
فقالت فجأة بعد فترة صمت وجيزة: "لا أهمية لهذا".
فتثاءبت مرة أخرى قائلًا: "إنه لشنيع. فلا بد أن حفاري القبور قد سخطوا لما لحقهم من بلل بسبب الثلج. ولا بد أن القبر لم يكن يخلو من الماء".
وسألتني في شيء من الفضول ولكن لهجتها كانت قاطعة خشنة أكثر من ذي قبل قائلة: "ولم لا يخلو القبر من الماء".
فجأة بدأت أشعر بالاستفزاز.
- "لا بد أن الماء كان على عمق قدم في قاع القبر. فلا يمكن أن يحفر قبر جاف في مدافن فولكوفو".
- "لماذا؟".
- "لماذا؟ لأن المكان مملوء بالماء. إنه مستنقع حقيقي. فهم يدفنونهم في الماء. لقد رأيت ذلك بنفسي.. عدة مرات".
- "ولكنني لم أكن قد رأيت ذلك مطلقًا بل إنني في الواقع لم أذهب قط إلى فولكوفو وكل ما سمعته عن هذا المكان هو قصص رويت لي".
- "أتعنين أنه لا يهمك كيف تموتين؟".
فأجابتني قائلة وكأنها تدافع عن نفسها: "ولكن لماذا أموت؟".
- "إنك ستموتين يومًا ما. وستموتين كتلك المرأة تمامًا. فقد كانت.. فتاة مثلك. وقضى عليها السل".
- "كان يمكن أن تموت تلك الساقطة في مستشفى.. (إنها تعرف كل شيء عن ذلك. لقد قالت "ساقطة" ولم تقل "فتاة").

فأجبتها وقد زادت المناقشة من استفزازي قائلًا: "كانت مدينة لسيدتها. واستمرت تكسب لها النقود حتى النهاية على الرغم من مرضها بالسل. فقد كان هناك بعض سائقي المركبات يتحدثون عنها إلى بعض الجنود ويقولون لهم ذلك. ولا شك في أنهم كانوا يعرفونها. فقد انطلقت منهم الضحكات. واتفقوا على اللقاء في إحدى الحانات ليشربوا نخب ذكراها".
كان جزء كبير مما قلته محض اختلاق. ثم ساد الصمت. صمت عميق. ولم تحرك ساكنًا.
- "وهل من الأفضل أن يموت الإنسان في مستشفى؟".
ثم أردفت قائلة في ضجر: "أليس هو نفس الشيء تمامًا؟ وفضلًا عن ذلك فلماذا أموت؟".
- "إن لم يكن الآن فبعد وقت قصير".
- "ولماذا بعد وقت قصير؟".
- "فعلًا؟ أنت الآن صغيرة جميلة ناضرة وتتقاضين أجرًا مرتفعًا. ولكن بعد مضي سنة واحدة من حياتك هذه سيختلف الأمر تمامًا. ستذبلين وتبور سلعتك".
- "بعد سنة واحدة؟".
- فتابعت حديثي في حقد قائلًا: "على أية حال فإنك بعد مضي سنة لن تساوي شيئًا. وستنتقلين من هنا إلى ما هو أحط من ذلك أعنى بيتا آخر. وبعد سنة أخرى إلى منزل ثالث أحط وأحط. ثم ينتهي بك المطاف بعد سبع سنين إلى بدروم في هاي ماركت. هذا إذا كنت سعيدة الحظ ولكن الأمر يسوء عن ذلك كثيرًا. إذا ما أصابك مرض ما كالسل مثلًا.. أو يتمكن منك برد شديد أو أية علة أخرى. وليس من السهل التغلب على المرض لمن كانت له مثل حياتك فإذا ما أصبت بعلة ما فقد لا تتخلصين منها. وهكذا تموتين.
فأجابت في حقد قائلة: "أوه إذن فسأموت".
ثم أتت حركة سريعة.
- "ولكن الإنسان يشعر بالأسف".
- "لمن؟".
- "للحياة".
ثم ساد الصمت:
- "هل خطبك أحد؟ هه؟".
- "وماذا يهمك في ذلك؟".
- "أوه إني لا أقوم باستجوابك. فهذا لا يهمني في شيء؟ لم تغضبين هكذا؟ فقد تكون لديك بلا شك متاعبك الخاصة، ماذا يهمني منها؟ إنه شعوري بالأسف لا غير".
- "الأسف لمن؟".
- "لك".

فهمست في صوت لا يكاد يسمع وأتت بحركة طفيفة قائلة: - "لا داعي لذلك". فأغاظني هذا في الحال. ماذا! أأكون رقيقًا معها إلى هذا الحد وهي.. - "هل تظنين أنك تسلكين الطريق الصحيح؟".

- "إني لا أظن شيئًا".

- "هذا هو الخطأ. إنك لا تظنين شيئًا. تحقِّقي من موقفك قبل فوات الأوان. فما تزال أمامك الفرصة. إذ أنك لا تزالين صغيرة وجميلة ففي وسعك أن تحبي وتتزوجي وتسعدي..

فصرخت قائلة في تلك اللهجة الوقحة القاطعة التي كانت تتكلم بها في أول الأمر: - "ليست المتزوجات كلهن سعيدات".

- "نعم بالطبع. ولكن حياتهن على أية حال أفضل بكثير من الحياة هنا. أفضل على الإطلاق. وفضلًا عن ذلك فبالحب يستطيع الإنسان أن يعيش حتى بدون سعادة. إن الحياة حلوة حتى في الحزن. إن الحياة حلوة كيفما عاشها الإنسان. أما هنا فماذا هناك.. إلا الدنس؟!

وأشحت بوجهي في نفور. لم أعد أعقل ما أقول في هدوء. وبدأت أشعر أنا نفسي بما أقول وتحمست للموضوع. كنت أتوق إلى التعبير عن أفكاري المحبَّبة إلى نفسي والتي طالما تأملتها في جحري. وإذا بشيء ما يتأجج في نفسي فجأة. فقد ظهر أمامي هدف معين.

- "لا تبالي بوجودي هنا. فأنا لست قدوة لك. بل قد أكون أسوأ منك حالًا". ولكنني أسرعت بالدفاع عن نفسي قائلًا: "ومع ذلك فقد كنت مخمورًا عندما جئت إلى هنا. وفضلًا عن هذا فإن الرجل لا يصلح أن يكون قدوة للمرأة. إذ أن الأمر يختلف. فقد أحُطُّ من قدري وقد أدنِّس نفسي ولكنني لست عبدًا لأحد. فإني أجيء وأذهب وبعدها ينتهي كل شيء. وأنفض عن نفسي غبار الدنس فأصبح رجلًا آخر. ولكنك مستعبدة منذ البداية. نعم مستعبدة! فأنت تتنازلين عن كل شيء، تتنازلين عن كامل حريتك وإذا أردت فيما بعد أن تُحَطِّمي أغلالك فلن تستطيعي ذلك. بل سيُحكم عليك القيد في الفخ الذي وقعت فيه. إنها عبودية لعينة. إني أعرفها. ولن أتحدث عن أي شيء آخر فقد لا تفهمين ما أقول. ولكن خبِّريني. لا شك أنك مدينة لسيدتك؟". ثم أردفت قائلًا رغم أنه لم تُحر جوابًا:"هذا هو ما أعنيه. أترين؟" ولكنها كانت تنصت في صمت وقد استغرقت انتباهها كلية. تلك عبودية لك! فلن تستطيعي أن تدفعي ثمن حريتك. هم حريصون على ذلك. فشأنك شأن من يبيع روحه للشيطان.. وفضلًا عن هذا.. قد أكون أنا أيضًا في مثل سوء حظك - أنَّى لي أن أعلم - وأتمرَّغ في الرَّغام عن عمد بسبب تعاستي؟ أنت تعلمين أن الرجال يُدمنون على الشراب من الحزن. بل ربما دفعني الحزن إلى هذا المكان. تعاليْ فخبريني ما الذي يطيب لك هنا؟ فها أنت وأنا.. قد اجتمعنا سويًّا.. الآن ولم ينبس أحد منا للآخر ببنت شفة طيلة الوقت. ولم تبدئي التحديق فيَّ كما يفعل المخلوق

الوحشي إلا بعد أن انتهينا من كل شيء. فهل هذا هو الحب؟ أهكذا يلتقي اثنان من البشر؟ إنها لصورة بشعة. نعم إنها لكذلك في الحقيقة!
فوافقتني في حدة وسرعة قائلة: "نعم!".
لشد ما أدهشتني السرعة التي نطقت بها كلمة "نعم". إذن فربما كان يجول بذهنها نفس الخاطر عندما كانت تحملق فيَّ منذ قليل. إذن فقد كانت هي أيضًا قادرة على كل شيء من التفكير؟" فحدثت نفسي قائلًا وأنا أفرك يدي من الفرح: "لعنة الله على كل شيء! إن ذلك لمثير حقًّا! فهناك وجه شبه بيننا! ومن السهل حقًّا التأثير على مثل هذه الروح الصغيرة!".
ولشد ما جذبتني ممارسة قدرتي على التأثير.
ثم حركت رأسها قريبًا مني وبدا لي في الظلام أنها استندت إلى ذراعها. بينما كانت تتفحصني بعينيها. ولشد ما أسفت أنني لم أستطع رؤيتهما. ولكنني كنت أسمع تنفسها العميق.
سألتها وفي صوتي نبرة آمرة قائلًا: "ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟".
- "أوه لست أدري".
- "ولكن كم تكون الحياة جميلة في بيت أبيك ففيها دفء وحرية! فإن لك بيتًا يخصك".
- "ولكن كيف تكون الحال إذا كان أسوأ من هذا؟".
فلمع في ذهني خاطر وحدثت نفسي قائلًا: "يجب أن أتوخَّى النغمة الصحيحة فلا ينبغي أن أغالي في افتعال الرقة". ولكنه لم يكن إلا خاطرًا مؤقتًا. فأقسم أنها قد أثارت اهتمامي حقًّا. وفضلًا عن ذلك فقد كنت حزينًا منهوك القوى. وسرعان ما يتفق المكر مع الشعور في سهولة ويسر.
فأسرعت بإجابتها قائلًا: "ومن ذا الذي ينكر هذا! فكل شيء محتمل الوقوع. إني مقتنع أنك ظلمت وأن ما ارتُكب من إثم في حقك يزيد على ما ارتكبته أنت. إنني بالطبع لا أدري شيئًا من قصتك. ولكن ليس من المحتمل أن فتاة مثلك تأتي إلى هنا بمحض إرادتها".
فهمست قائلة في صوت لا يكاد يسمع ولكنني سمعته: "فتاة مثلي؟".
- "عليَّ اللعنة! لقد كنت أتملقها هذا أمر شائن. ولكن ربما أجدى ذلك معها.. فقد التزمت الصمت".
- "انظري يا ليزا سأقول لك شيئًا عن نفسي. لو كان لى بيت منذ طفولتي لما أصبحت كما أنا الآن. ولطالما راودني هذا الخاطر. فمهما كانت الحياة بغيضة مع أبويك فهما أبواك على أية حال وليس بينهما عدو أو غريب. وسيظهران حبهما لك مرة واحدة على الأقل في السنة. كما أنك تعلمين على أية حال أنك في بيتك. أما أنا فقد نشأت بلا بيت. وربما كان ذلك هو السبب في أنني أصبحت.. مجردًا من الشعور".
وانتظرت مرة أخرى. ثم حدثت نفسي قائلًا: "ربما كانت لا تفهم ما أقول ولا شك أنه سخف، إنه من قبيل الوعظ والإرشاد".

وبدأت أقول بطريقة غير مباشرة وكأنني أتحدث عن شخص آخر لأحوِّل أفكارها: "ولو كنت أبًا ولي ابنة فأعتقد أنني كنت أحب ابنتي في الحقيقة أكثر من أبنائي". ولا بد أن أعترف هنا بأن وجهي قد تضرج خجلًا.
فسألتني قائلة: "ولماذا؟".
- "آه! لقد كانت مصغية لي!".
- "لست أدري يا ليزا، كنت أعرف أبًا وكان رجلًا متجهمًا قاسيًا ولكنه كان يجثو أمام ابنته ويقبل يديها وقدميها. والحق أنه كان يحبها حبًّا جمًّا. وعندما كانت ترقص في الحفلات كان يظل هو واقفًا خمس ساعات بطولها وهو يحملق فيها. وأعتقد أنه كان مجنونًا بحبها! كانت تذهب لتنام وقد نال منها التعب فيستيقظ هو من نومه ويقبلها وهي نائمة ويرسم عليها علامة الصليب. كان يُرى في الطريق مرتديًا سترة قذرة عتيقة ويقبض يده عن الجميع ولكنه كان يُنفق على ابنته آخر ما في جيبه فيقدم إليها الهدايا الثمينة الغالية. ولشد ما كانت فرحته عندما يبدو عليها السرور بما يقدمه إليها. فالآباء دائمًا يحبون بناتهم أكثر من الأمهات. ولذا فإن بعض الفتيات يعشن سعيدات في بيوتهن! وأعتقد أنني ما كنت أسمح مطلقًا لبناتي بالزواج".
فقالت بابتسامة باهتة: "لماذا؟".
- "ربما تملكتني الغيرة. نعم كنت أغار حقًّا، عندما أفكر أنها تقبل شخصًا آخر! وأنها تحب غريبًا أكثر مما تحب أباها! إنه لمن المؤلم تخيُّل هذا. ولا شك في أن هذا التفكير كله هراء. فالآباء جميعًا يعودون في النهاية بالطبع إلى صوابهم ولكنني أعتقد أنني كنت أقتل نفسي همًّا وقلقًا قبل أن أسمح لها بالزواج. وكنت أتلمَّس الأخطاء في جميع من يتقدمون إليها. ولكنني كنت أسمح لها في النهاية بالزواج بمن يهواه قلبها. ولكن أتعلمين أن من تخصُّه الابنة بحبها يكون دائمًا في نظر الأب شرهم جميعًا. هذه هي الحال دائمًا. وذلك هو السبب في كثير من المشاكل العائلية".
فقالت: "ولكن بعض الآباء يفضِّلون أن يبيعوا بناتهم على أن يزوِّجوهم زيجات شريفة". آه! إذن فتلك هي قصتها!
فأجبتها في حماس قائلًا: "مثل هذا الأمر يا ليزا لا يحدث إلا في تلك الأسر اللعينة التي لا تعرف الحب ولا تعرف الله. وحيث ينعدم الحب ينعدم الإدراك أيضا ولا شك في وجود مثل هذه الأسر غير أنني لا أتحدث عنها. ولكن لابد أنك قد عانيت في أسرتك كثيرًا من الشر والأذى، إذا كنت تتكلمين على هذه الصورة فلا بد أنك كنت حقيقة عاثرة الحظ. إحم! وكثيرًا ما يحدث هذا بسبب الفقر".
- "وهل الأغنياء أسعد حالًا؟ إن الشرفاء من الناس حتى بين الفقراء يعيشون في سعادة".
- "إحم.. نعم هذا جائز. وثمة شيء آخر يا ليزا فالإنسان مغرم بإحصاء متاعبه ولكنه لا يحصي أفراحِه. فإذا ما أحصاها كما ينبغي وجد أن كل حياة فيها ما

يكفي من السعادة. وأعظم من هذا لو أن كل شيء في الأسرة كان على ما يرام، ولو أن نعمة الرب شملتها وكان الزوج رجلًا فاضلًا يحبك ويعتز بك ولا يفترق عنك مطلقًا! على مثل هذه الأسرة ترفرف السعادة! بل لقد توجد السعادة أحيانًا في خضم الأسى والحزن. ولا شك أن الأسى في كل مكان. وستكتشفين ذلك بنفسك إذا ما تم لك الزواج. ولكن أية سعادة! أية سعادة ترفرف أحيانًا على السنوات الأولى من الحياة الزوجية مع شخص تحبينه!".

- "ولا شك أن هذا أمر عادي فإن كل شيء لا يلبث في هذه الأيام الأولى أن ينتهي نهاية سعيدة حتى ما يحدث بين الأزواج من خلاف. بل إن بعض النساء يفتعلن الخلاف مع أزواجهن لا لشيء إلا لحبهن لهم. وقد عرفت امرأة من هذا النوع بالفعل". بدت وكأنها تقول لي أنها إنما تسومه العذاب وتشعره بذلك بسبب حبها له. أتعلمين أنك قد تعذبين رجلًا عن عمد بسبب الحب. والنساء خاصة مشغوفات بهذا فتحدث كل منهن نفسها قائلة: "إني سأحبه كثيرًا وسأجعله كل شيء في حياتي فيما بعد فلا ضير من أن أعذبه الآن قليلًا". وكل من في البيت يبتهجون لرؤيتك! أما أنت فتسعدين وتفرحين وتقضين حياة آمنة فاضلة.. ثم هناك النساء الغيورات. فإذا ما ذهب الزوج إلى أي مكان..! وقد عرفت امرأة من هذا النوع كانت لا تستطيع أن تكبح جماحها فتقفز من فراشها في الليل وتتسلل متخفية لتكتشف أين كان زوجها وهل كان مع امرأة أخرى. شيء يدعو إلى الرثاء!".

- "والمرأة نفسها تعلم ما في ذلك من خطأ فيخونها قلبها فتعاني وتقاسى ولكنها أسيرة الحب، كل هذا بسبب الحب، وكم يكون الصلح جميلًا حلوًا بعد الشجار فتعترف هي نفسها بخطئها أو تعفو عنه! ثم يحس كلاهما بالسعادة في الحال، وكأنهما قد تلاقيا من جديد وتزوجا مرة أخرى وكأن حبهما قد ولد مرة أخرى.. ولا يجب أن يعلم أحد بما يحدث بين الزوج وزوجته إذا ما ربط بينهما الحب. ومهما حدث بينهما من شجار فلا يجب أن يحكِّما الأمهات بينهما ويتقوَّل كل منهما على الآخر. بل يجب أن يحكما نفسيهما".

- "الحب سرٌّ مقدس وينبغي أن يظل خافيًا لا تراه العيون مهما حدث. فهذا من شأنه أن يزيد من قدسيَّته ويوثق من عراه. فيحترم أحدهما الآخر. فالاحترام أساس لبناء ضخم. فإذا ما وجد الحب وكان زواجهما عن حب فلماذا ينضب هذا الحب؟ لا شك في أنهما يستطيعان الاحتفاظ به! وقلما يعجز الإنسان عن الاحتفاظ به. وإذا كان الزوج رحيمًا صريحًا فلماذا لا يستمر الحب. لا شك في أن المرحلة الأولى من الحب الزوجي لا تلبث أن تنقضي ولكن عندئذ يأتي حب أفضل وعندئذ يتم اندماج الروحين ويشتركان في كل شيء ولا يخفي أحدهما سرًّا عن الآخر.

وعندما يرزقان بأطفال تبدو لهما أعصب الأوقات سعيدة هانئة ما دام هناك حب وشجاعة. بل إن العمل المضني سيكون متعة وبهجة. وقد تحرمين نفسك من الخبز من أجل أطفالك. وتجدين في ذلك متعة لك. فسيحبونك فيما بعد

من أجل هذا. إذن فأنت تدخرين شيئًا لمستقبلك. وكلما نما الأطفال تشعرين بأنك قدوة لهم ودعامة لحياتهم فيحتفظ أطفالك دائمًا حتى بعد مماتك بأفكارك ومشاعرك لأنهم قد تلقوها عنك فيتشبهون بك ويحذون حذوك. وهكذا إنها رسالة عظيمة. فكيف يمكن أن تفشل هذه الرسالة في التقريب بين الأبوين؟ يقول الناس إنها محنة أن يرزق الإنسان بالأطفال. من ذا الذى يقول هذا؟ إنها سعادة إلهية! هل تحبين الأطفال يا ليزا؟ لشد ما أحبهم. أتعلمين تخيلي نفسك تحملين على صدرك طفلًا ذكرًا صغيرًا جميلًا. أي زوج لا يتأثر قلبه وهو يرى زوجته ترضع طفله وترعاه؟ طفله الممتلئ الصغير الجميل الذي يتمطى ثم ينكمش معانقًا أمه بأطرافه الممتلئة الصغيرة وأظافره الرقيقة النظيفة التي تبعث دقتها على الضحك وعينيه اللتين تبدوان وكأنهما تستوعبان كل شيء. وإذا به يمد يده الصغيرة ويتشبث بصدرك وأنت ترضعيه ثم يأخذ في العبث. وعندما يأتي أبوه ينتزع الطفل نفسه من على صدرك ويرتمي إلى الخلف ثم ينظر إلى أبيه ويضحك وكأن في منظره ما يثير الضحك للغاية ثم يعود إلى الرضاعة من جديد. أو يعض ثدي أمه عندما تبرز أسنانه وهو ينظر إليها من طرف عينه وكأنه يقول لها: "انظري إني أعض!" أليست هذه كلها سعادة عندما يجتمع ثلاثتهم سويًّا، الزوج والزوجة والطفل؟ إن الإنسان ليستطيع أن يغتفر الكثير من أجل هذه اللحظات، نعم يا ليزا، يجب أن يتعلم الإنسان أن يعيش هو نفسه أولًا قبل أن يلوم غيره!".

وحدثت نفسي قائلًا: "لا بد من الوصول إلى قلبك بمثل هذه الصور".

وذلك على الرغم من أنني كنت أتكلم بشعور حقيقي، ثم إذا بي فجأة أشعر بالدم يصعد إلى رأسي: "ماذا يحدث لو أنها فجأة انفجرت ضاحكة. ماذا أفعل في تلك اللحظة؟" ودفعتني هذه الفكرة إلى الغضب الشديد. لقد تملكني الحماس حقًّا عندما أوشكت على الانتهاء من حديثي. أما الآن فقد أحسست بجرح في كبريائي. وساد الصمت. وأوشكت أن ألكزها وبدأت تتكلم قائلة: "لماذا.." ثم أمسكت عن الكلام. ولكنني فهمت. لقد اختلج صوتها بنبرة مختلفة خلت من الحزم والخشونة والصلابة التي عهدتها فيه أولًا. كانت نبرة رقيقة تنم عن الحياء الشديد الذي جعلني فجأة أحس بالخجل والإثم.

سألتها في فضول رقيق قائلًا: "ماذا؟".

- "لماذا...؟".

- "ماذا؟".

فقالت وقد عاودت صوتها رنة سخرية: "لماذا تتكلم كما لو كنت كتابًا؟".

وقد حز في قلبي قولها هذا. لم يكن ذلك هو ما كنت أتوقعه. لم أدرك أنها كانت تخفي مشاعرها تحت ستار السخرية وأن هذه السخرية عادة هي الملاذ الأخير الذي يلوذ به كل متواضع عف الروح عندما يقتحم أحد عزلته الروحية في قسوة وتطفل وتأبى عليه كبرياؤه أن يستسلم حتى آخر لحظة. ويحجم عن التعبير عن مشاعره أمامك. كان ينبغي أن أقدر الحقيقة من خلال حيائها

الذي لابس سخريتها في كل مرة حاولت أن تنطق بها ولم تستطع ذلك إلا بعد جهد. لم أقدر ذلك وتملكني شعورٍ شرير.

وحدثت نفسي قائلًا: "انتظري قليلًا!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّابع

- "أوه كفى يا ليزا! كيف تقولين إنني أبدو ككتاب في حين أن حياتك هذه تشعرني أنا الغريب بالغثيان؟ رغم أنني لا أنظر إليها كغريب لأنها في الحقيقة تؤثر في أعماق قلبي.. هل من الممكن؟ هل من الممكن ألا تشعري بالغثيان لوجودك أنت نفسك في هذا المكان؟ لا شك أن العادة تصنع المعجزات! ولا يعلم إلا الله ماذا يمكن أن تصنعه العادة في الإنسان. هل تستطيعين حقًّا أن تتخيلي أنك لن تصيري عجوزًا قط وأنك ستحتفظين دائمًا بجمالك وأنهم سيبقونك هنا إلى الأبد؟ هذا إذا أغفلت الحديث عن بشاعة الحياة هنا.. ومع ذلك فاسمحي لي أن أقول لك شيئًا عنها، أقصد عن حياتك الحاضرة. ها أنت ذي الآن شابة جذابة رقيقة ذات روح وشعور ومع ذلك فهل تعلمين أنني ما أن ثبت إلى رشدي الآن حتى شعرت في الحال بالغثيان لوجودي معك! إن الإنسان لا يأتي إلى هذا المكان إلا إذا كان مخمورًا. ولكنك لو كنت في أي مكان آخر تعيشين كما يعيش الشرفاء فقد أُفتن بجمالك وأقع أسير غرامك ويستخفني الفرح لنظرة من عينيك فما بالك بكلمة من شفتيك. وأحوم حول دارك وأجثو على ركبتي أمامك وأنظر إليك كخطيبتي وأعده شرفًا أن يسمح لي بذلك. ولا يجسر أن يمر بذهني عنك خاطر دنس. أما هنا كما ترين فإنني أعلم أنه ما عليَّ إلا أن أصفر حتى تأتي إليَّ رغبت في ذلك أو لم ترغبي. فأنا لا أسألك عن رغباتك بل تسألينني أنت عما أريد. إن أقل عامل يؤجر نفسه، ولكنه يأبى أن يُستعبد تمامًا. وهو فضلًا عن ذلك يعلم أنه لن يلبث أن يعود حرًّا طليقًا. أما أنت فمتى تعودين حرة؟ فكري فقط فيما تتنازلين عنه في هذا المكان! وفيما يستعبد فيك! إنهما روحك وجسدك معًا. فأنت تبيعين روحك التي لا يحق لك أن تتصرفي فيها! تبذلين الحب الذي ينتهكه كل سكير! الحب! ولكنك تعلمين أنه كل شيء في الوجود. إنه ماسة لا تقدر بثمن. إنه كنز العذراء. الحب، إن الرجل لا يتردد في أن يبذل روحه ويواجه الموت ليفوز بذلك الحب. ولكن كم يساوى حبك الآن؟ إنك بكامل كيانك جسدا وروحا سلعة مبيعة. ولا حاجة للنضال من أجل الحب عندما يمكن الحصول على كل شيء بدونه. وتلك أقسى إساءة يمكن أن تلقاها فتاة أتفهمين؟ ولقد سمعت طبعًا أنهم يواسونكن هنا أيتها الحمقاوات التعسات فيسمحون بأن تتخذ كل منكن لها عشيقًا. ولكنك تعلمين أن هذا ليس إلا مجرد خداع وزيف. إنهم يضحكون منكن فحسب فتخدعن بذلك!".

- "هل تعتقدين أنه يحبك حقًّا.. عشيقك هذا؟ لا أظن. فكيف يمكن أن يحبك وهو يعلم أنهم قد يستدعونك في أية لحظة؟ ولو أحبك لكان نذلًا حقيرًا. هل يمكن أن يكن لك ذرة من الاحترام؟ ففيم تشتركان؟ إنه يضحك منك ويسلبك نقودك، هذا هو مبلغ حبه لك! ويكون من حسن حظك ألا يتعدى عليك بالضرب

بل أغلب الظن أنه سيضربك بالفعل. سلي عشيقك أن يتزوجك إن كان لك عشيق. إنه سيضحك في وجهك إن لم يبصق عليه أو يهوي عليه بلكمة، مع أنه هو نفسه قد لا يساوي قُلامة ظفر. ولتقبلي الأمر على وجوهه. فيم كان دمار حياتك؟ أمن أجل ما يمنحونك إياه من قهوة ووجبات دسمة؟ ولكن ما الذي يرمون إليه من إطعامك؟ إن أية فتاة شريفة لا تستطيع أن تبتلع الطعام لأنها تعلم لماذا تطعم. إنك مدينة هنا ولا شك أنك ستكونين دائمًا مدينة وستظلين كذلك حتى النهاية، إلى أن يحتقرك رواد هذا المكان. ولن يلبث أن يحدث هذا. فلا تعتمدي على شبابك، فسرعان ما يتلاشى هنا. ثم تطردين من هذا المكان. ولكنك لا تطردين فحسب. بل إن سيدة الدار تأخذ في مضايقتك وزجرك وإساءة معاملتك قبل ذلك بوقت طويل، وكأنك لم تُضحِّي بصحتك من أجلها ولم تفرطي في شبابك ولم تبذلي روحك، كل ذلك من أجل مصلحتها بل يبدو وكأنك أنت التي حطمت حياتها وجلبت عليها الفاقة وسلبتها مالها. ولا تنتظري أن ينصرك أحد.. فرفيقاتك الأخريات سيهاجمنك أيضًا ليفزن برضاها لأن الجميع هنا يرسفن في أغلال العبودية، فقد مات فيهن الضمير ونضبت منهن الشفقة منذ وقت طويل. لقد انحطت أخلاقهن انحطاطًا تامًّا، وليس هناك ما هو أوضح وأبغض وأكثر إساءة من تطاولهن وسبهن.

وأنت تبذلين كل شيء هنا بلا قيد أو شرط: الشباب والصحة والجمال والأمل وعندما تبلغين الثانية والعشرين من عمرك تبدين وكأنك امرأة في الخامسة والثلاثين ويكون من حسن حظك أن تسلمي من المرض. صلِّي لله من أجل ذلك! لا شك أنك تظنين الآن أنك تقضين وقتًا سعيدًا لا تؤدين فيه أي عمل! ولكن ليس في الوجود الآن ولا في أي وقت مضى عمل أشق ولا أبشع من ذلك العمل. إني أعتقد أن القلب وحده ستذيبه الدموع ولن تجرؤي على أن تقولي كلمة واحدة بل نصف كلمة عندما يطردونك من هنا بل ستذهبين وكأنك تستحقين اللوم. ستذهبين إلى بيت آخر ثم ثالث ثم مكان غيره حتى ينتهي بك المطاف إلى (هاي ماركت). وهنا تُضربين عند كل زيارة فتلك هي طريقة الرواد هناك في التودد! إنك لا تصدقين أن الحياة هناك بغيضة إلى هذا الحد؟ فلتذهبي ولتنظري بنفسك وسترين بعيني رأسك. حدث ذات مرة في يوم عيد رأس السنة أن رأيت امرأة تقف بأحد الأبواب. كانوا قد أخرجوها على سبيل المزاح وأغلقوا الباب دونها ليذيقوها مر الصقيع لأنها أكثرت من البكاء. كانت مخمورة تمامًا في الساعة التاسعة صباحًا شعثاء نصف عارية تغطي جسدها الكدمات وتعلو وجهها المساحيق وقد اسودت إحدى عينيها من أثر ضربة تلقتها، ونزف الدم من أنفها وأسنانها. كان أحد السائقين قد اعتدى عليها بالضرب. فجلست على عتبة الباب الحجرية تمسك بيدها سمكة مملحة. كانت تبكي وتندب حظها وهي تضرب بالسمكة عتبات الباب. وتزاحم السائقون والجنود المخمورون حول مدخل الدار يعنفونها ويسخرون من بكائها وعويلها. أنتِ لا تظنين أنك ستكونين على هذه الصورة في يوم من

الأيام؟ ويؤسفني أن أظن هذا. ولكن أنَّى لك أن تعرفي. فربما كانت تلك المرأة نفسها ذات السمكة المملحة قد جاءت إلى هنا، منذ عشر أو ثماني سنين في نضارة الأطفال، بريئة لا تعرف الشر ويتضرج وجهها بحمرة الخجل لكل كلمة. وربما كانت مثلك في كبريائك وحساسيتك لا كالأخريات وربما كانت تبدو كالملكات وتدرك مبلغ السعادة التي تدخرها لمن يحبها أو لمن تقع هي في حبه، فهل ترين كيف انتهى بها الأمر؟ وكيف تكون حالها لو أنها في تلك اللحظة ذاتها التي كانت تضرب فيها الدرج القذر بسمكتها المملَّحة مخمورة شعثاء الشعر، تذكرت أيامها الأولى الطاهرة في بيت أبيها عندما كانت تذهب إلى المدرسة بينما راح ابن جارهم يترقبها في الطريق معلنًا أنه سيظل يحبها ما بقي حيًّا وأنه سيكرس لها حياته، وتذكرت ما تعاهدا عليه من حب إلى الأبد وزواج حالما يبلغان سن الشباب!

لا يا ليزا إنه لمن الخير لك أن تموتي سريعًا من السل في أحد تلك الجحور أو أحد تلك الأقبية مثلما حدث لتلك المرأة أو في المستشفى كما تقولين. أليس كذلك؟ إنه لمن حسن الحظ أن يأخذوك إلى هناك ولكن ما العمل إذا كنت لا تزالين ذات نفع لسيدة الدار هنا؟ والسل مرض غريب. إنه ليس كالحمى. فالمريض لا يفقد الأمل حتى آخر لحظة ويظل يقول إنه على ما يرام. إنه يخدع نفسه. وهذا هو بالضبط ما تريده سيدتك. لا تشكي في هذا. إن الأمر على هذه الصورة، فقد بعت روحك. وفضلًا عن ذلك فأنت مدينة لها. ولن تجرؤي على التفوّه بكلمة واحدة. ولكنك عندما ترقدين على فراش الموت سيهجرك الجميع ويتخلون عنك لأنه لم يعد منك نفع لهم. وكذلك سيأخذون عليك أنك أصبحت عبئًا على المكان وأنك لا تسرعين نحو النهاية.

ومهما تتوسلي فلن تحصلي على جرعة ماء دون أن يعنفوك قائلين: متى تخمد أنفاسك أيتها العاهرة القذرة: "فأنينك يُحرِّم علينا النوم ويبعث الغثيان في نفوس السادة الرواد".هذه حقيقة وقد سمعت بنفسي هذا الكلام. سيُلقون بك وأنت في النزع الأخير في أقذر زاوية من زوايا القبو، حيث الرطوبة والظلام. ماذا يدور بخلدك وأنت راقدة هناك في وحدتك؟ وعندما تحضرك المنية فستوسدك أيدٍ غريبة. ولن يباركك أحد. ولن يتنهد أحد من أجلك فهم لا يبغون إلا الخلاص منك في أسرع وقت ممكن. فيشترون لك نعشًا ويأخذونك إلى القبر كما فعلوا اليوم مع تلك المرأة المسكينة، ثم يحتفلون في الحانة بذكراك. وفي القبر يوجد البَرَد والقَذر والثلج المبتل، فلا حاجة لأن يضايقوا أنفسهم من أجلك. يقول أحدهم: "أنزلها يا فانوها، فهكذا تمامًا كانت قسمتها في الحياة. إنها تدخل برأسها حتى هنا تلك العاهرة. قَصِّر الحبل أيها الوغد". فيرد عليه الآخر قائلًا: "إنه مناسب هكذا". فيقول الأول: "أمناسب هو؟ ولكنها راقدة على جنبها! لقد كانت مخلوقة من البشر على أية حال! ولكن لا عليك. هِلْ عليها التراب". ولن يهتما بعد ذلك بإضاعة الوقت في التشاجر من أجلك. ثم يضعان الصلصال الأزرق المبتل على قبرك بسرعةٍ ما

وسعهما ذلك ثم ينصرفان إلى الحانة.. وهناك تنتهي ذكراك على الأرض. أما غيرك من النساء فلديهن أطفال يَزورونَ قبورهن وآباء وأزواج. ولكن من أجلك لن تذرف دمعة واحدة ولن تسمع تنهدة ولن تبقى ذكرى. فلن يزور قبرك أحد في الوجود ولن يبقى أثر لاسمك على وجه الأرض، وكأنك لم يكن لك وجود قط. بل وكأنك لم تولدي مطلقًا! لن يكون هناك إلا القذر والوحل مهما كانت طرقاتك على غطاء نعشك أثناء الليل عندما يستيقظ الموتى، ومهما كانت صيحاتك قائلة: "أخرجوني أيها الرحماء لأعيش في ضوء النهار فإن حياتي لم تكن حياة قط. لقد نبذت حياتي كما تنبذ الخرقة البالية وضاعت في غمرة من السكر في إحدى حانات (هاي ماركت). أخرجوني أيها الرحماء لأحيا في الوجود من جديد".

وأخذني الحماس حتى بدأت أشعر بغصة في حلقي.. وفجأة توقفت واعتدلت في فزع ثم انحنيت فوقها في خوف وأخذت أنصت لها بقلب خافق.. وكنت على حق في انزعاجي.

لقد شعرت إلى حين أنني كنت أقلب روحها رأسًا على عقب وأمزق قلبها، وكلما زاد اقتناعي بذلك زادت رغبتي الملحة في الوصول إلى هدفي في سرعة فعالة ما وسعني ذلك. وكانت رغبتي في ممارسة قدرتي هي التي جعلتني أندفع في الحديث إلى هذا الحد. ولكنها لم تكن لهوًا فحسب.

كنت أعلم أنني كنت أتكلم في تكلف وصنعة بل كما لو كنت أقرأ في كتاب. والحق أنني لم أستطع الكلام إلا على هذه الصورة. ولكن ذلك لم يزعجني فقد كنت أعلم وأحسُّ أنها ستفهمني وأن هذه الطريقة نفسها قد تكون عونًا لي على ذلك. أمَّا الآن وقد حققت ما أريده من تأثير فقد شعرت بالرعب يتملكني. فما رأيت قط في حياتي مثل هذا اليأس! كانت منكفئة على وجهها وقد دفنت رأسها في وسادتها وأمسكت بها بكلتا يديها. كان قلبها يتمزق، وجسدها الغض يرتجف، وكأنه يعاني من التشنج. كان تشنجها المكتوم يمزق صدرها وفجأة انفجرت في بكاء وعويل. ثم أمعنت في الضغط على وسادتها، لم تُرد أن يعلم أحد هنا كائنًا من كان بألمها ودموعها. فراحت تطبق بأسنانها على الوسادة وتعض يدها حتى أدمتها (وقد رأيت ذلك فيما بعد) أو تدفع بأصابعها في شعرها الأشعث. كانت تبدو متصلبة من كثرة ما بذلت من جهد لكبح جماحها وهي تكتم أنفاسها وتضغط على أسنانها. وبدأت أقول شيئًا متوسلًا إليها أن تهدئ من روعها ولكنني تخاذلت وخانتني جرأتي. وفجأة اعترتني قشعريرة باردة وبدأت فيما يشبه الفزع أتعثر في الظلام محاولًا أن أرتدي ملابسي على عجل لأنصرف. كانت الغرفة غارقة في الظلام، فلم أستطع ارتداء ملابسي بسرعة رغم أنني بذلت أقصى جهدي. وبغتة عثرت على علبة ثقاب وشمعدان يحمل شمعة كاملة. وما أن أضيئت الغرفة حتى قفزت ليزا من رقدتها واعتدلت جالسة في فراشها وراحت تنظر إليَّ فيما يشبه الغيبوبة وقد تقلَّص وجهها وابتسم في شبه خبال. جلست بجانبها

وأخذت يديها فثابت إلى رشدها، وتحركت نحوي حركة لا إرادية، وهمَّت بأن تمسك بي ولكنها لم تجرؤ على ذلك. ثم طأطأت رأسها في بطء أمامي.
فقلت: "ليزا عزيزتي، لقد أخطأت.. فاغفري لي يا عزيزتي".
ولكنها ضغطت على يدي بشدة بين أصابعها، فشعرت بخطأ ما قلت وأمسكت عن الحديث.
- "هاك عنواني يا ليزا، تعالي إليَّ".
- فأجابت في عزم وهي ما تزال حانية رأسها قائلة: "سآتي".
- "والآن سأنصرف. وداعًا.. وإلى اللقاء".
فنهضت، ووقفت هي أيضًا، وفجأة احمر وجهها وارتجف جسدها واختطفت وشاحًا كان موضوعًا على أحد المقاعد وتدثرت به حتى ذقنها. وعلت وجهها ابتسامة باهتة وهي تفعل ذلك ثم احمرت خجلًا وراحت تنظر إليَّ على نحوٍ غريب. فانتابني شعور بالتعاسة. كنت أتعجل الانصراف، والاختفاء.
وقالت وهي في الطرقة عند المدخل تمامًا وقد أوقفتني واضعة يدها على معطفي: "انتظر دقيقة". ووضعت الشمعة في سرعة فائقة ثم انطلقت. كان من الواضح أنها فكرت في شيء ما أو أرادت أن تعرض عليَّ شيئًا ما. وعندئذ احمر وجهها ولمعت عيناها وابتسمت شفتاها، ما معنى هذا؟ وانتظرتها على مضض. ثم عادت بعد دقيقة واحدة يعلو وجهها تعبير يبدو وكأنه يطلب المغفرة لشيء ما. والواقع أنه لم يكن نفس الوجه ولا نفس النظرة اللذين طالعتني بهما في الليلة السابقة حين عبر وجهها عن الحزن والريبة والعناد. كان في عينيها الآن، توسل ورقة وفي نفس الوقت ثقة وحنان وخجل. إنه ذلك التعبير الذي ينظر به الأطفال إلى من يحبونه ليسألوه معروفًا. كانت عيناها عسليتين جميلتين تفيضان حيوية، قادرتين على التعبير عن الحب وكذلك عن الكراهية الحزينة في نفس الوقت.
لم تقدم تفسيرًا ما لتصرفها، وكأنني لمَّا كنت مخلوقًا أسمى لا بد أن أفهم كل شيء دون تفسير. قدمت إليَّ قصاصة من الورق. وكان وجهها كله في تلك الآونة تعلوه إشراقة النصر في سذاجة وشبه طفولة. فضضت قصاصة الورق فإذا بها خطاب لها من طالب في كلية الطب أو شيء من هذا القبيل، كانت رسالة حب مدبجة بأسلوب مزخرف وعبارات براقة ولكنها كانت آية في الاحترام. لا أستطيع أن أذكر كلماتها الآن ولكنني أذكر جيدًا أنه من خلال عباراتها المنمقة كان هناك شعور صادق لا يمكن افتعاله. وعندما انتهيت من قراءة الرسالة التقيت بعينيها المتألقتين المستفسرتين مثبتتين عليَّ في قلق صبياني. تعلقت عيناها بوجهي وانتظرت في قلق، ما سأقوله. وروت لي مسرعة في بضع كلمات، ولكن في شيء من الفرح والفخر أنها كانت مدعوة إلى حفلة راقصة في منزل خاص يحوي أسرة: "تتألف من أشخاص في غاية الرقة كانوا لا يعرفون عنها شيئًا، لا يعرفون شيئًا ألبتة لأنها لم تأتِ إلى هنا إلا منذ فترة وجيزة جدًّا وحدث كل شيء.. وقالت إنها لا تنوي البقاء هنا وأنها

تنتوي الرحيل حالما تسدد دينها". وكان في تلك الحفلة ذلك الطالب الذي ظل يراقصها طيلة المساء. وتجاذبا أطراف الحديث فتبينت أنها كانت تعرفه في ريجا منذ زمن بعيد عندما كانا طفلين يلعبان سويًّا، ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد، وكان يعرف أبويها. أمَّا عن (ذلك) فلم يكن يعلم شيئًا، لم يكن يعلم شيئًا قط بل لم تكن لديه أدنى شبهة! وفي اليوم التالي لحفلة الرقص (أى منذ ثلاثة أيام) أرسل إليها هذا الخطاب مع ذلك الصديق الذي رافقته إلى الحفلة.. و.. وهذا هو كل ما هنالك".

وما أن انتهت من قصتها حتى أخفضت عينيها اللامعتين في شيء من الحياء.. كانت الفتاة المسكينة تحتفظ بخطاب ذلك الطالب وكأنه كنز ثمين. وقد أسرعت لتأتي به. إنه كنزها الوحيد لأنها لم تُرِد أن أنصرف دون أن أعلم أنها هي أيضًا كان لها محب صادق مخلص يخاطبها في احترام. ولا شك أن هذا الخطاب كان محتومًا عليه أن يظل في صندوقها بلا نتيجة. ولكنني مع ذلك واثق بأنها ستظل محتفظة به طيلة حياتها كنزًا ثمينًا ومفخرة لها. والآن وفي تلك اللحظة فكرت في خطابها وأحضرته في كبرياء ساذجة لتعلي من شأنها في نظري فأظن بها خيرًا أنا الآخر. ولكنني لم أقل شيئًا وضغطت على يدها وانصرفت. لشد ما تاقت نفسي إلى الانصراف.. ومشيت الطريق كله حتى البيت رغم أن الثلج الذائب كان لا يزال يتساقط بَرَدًا ثقيلًا. لقد كنت منهوكًا محطمًا حائرًا. ولكن من خلال تلك الحيرة كان يشعُّ نور الحقيقة. الحقيقة البغيضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامِنُ

ومع ذلك فقد مضى الوقت قبل أن أرتضي الاعتراف بالحقيقة. وعندما استيقظت في الصباح بعد بضع ساعات قضيتها في نوم ثقيل خدر وتذكرت في الحال كل ما حدث في اليوم السابق لشد ما دهشت وحقًّا لما افتعلته من رقة عاطفية مع ليزا في الليلة السابقة ولكل ما أظهرته من جزع ورثاء وانتهيت من تفكيري قائلًا لنفسي: "يا للأسف أيمكن أن تنتابني مثل هذه النوبات الخليقة بالنساء؟!" وما الذي جعلني أدفع إليها بعنواني؟ وماذا يحدث لو أنها قدمت لزيارتي؟ ومع هذا فلتأت فلا أهمية لذلك.. فقد كان من الواضح الآن أن ذلك لم يكن الموضوع الرئيسي ذا الأهمية القصوى بل كان عليَّ أن أسرع وأنقذ سمعتي بأي ثمن في نظر زفيركوف وسيمونوف في أقرب وقت ممكن. تلك كانت مهمتي الرئيسية. وكان أن شغلت ذلك الصباح إلى حد أنني نسيت فعلًا كل شيء عن ليزا.

كان عليَّ أولًا أن أرد في الحال ما اقترضته من سيمونوف في اليوم السابق فاستقر رأيي على أمر لم أجد مخرجًا غيره، أن أقترض في الحال خمسة عشر روبلًا من أنطون أنطونيتش. وشاءت المقادير أن يكون في أحسن حالاته ذلك الصباح. فأعطاني المبلغ في الحال فور سؤالي إياه لأول مرة. واستخفني الفرح لذلك حتى قلت له عرضًا وأنا أوقع له على الإيصال في زهو: "إنني كنت أقضي السهرة مع بعض الأصدقاء في فندق دي باري. حيث أقمنا حفلة وداع لرفيق لنا، بل أستطيع أن أقول في الواقع إنه صديق الطفولة وهو شاب فاجر متهور مدلل للغاية، ولا شك أنه ينتمي إلى أسرة كريمة ولديه موارد ضخمة ومستقبل باهر، وهو ذكي مرح جذاب ذو شخصية محبوبة، فأضفنا إلى شرابنا نصف دستة و.."

ونجحت قصتي.. فقد جرى لساني بكل هذا في يسر تام ورضًى وسرور دون ما حرج أو تكلف.

وحالما وصلت إلى منزلي كتبت رسالة إلى سيمونوف.

ومازلت حتى هذه الساعة لا أتمالك نفسي من الإعجاب الشديد عندما أذكر تلك اللهجة المهذبة الصادقة المعتدلة الصريحة التي كتبت بها خطابي. فقد أنحيت على نفسي باللائمة لكل ما حدث - في لباقة وأدب - وفضلًا عن ذلك كله فقد امتازت رسالتي بالاختصار والتركيز. ودافعت عن نفسي: "إذا ما سمح لي حقًّا بالدفاع عن نفسي". مشيرًا إلى عدم تعودي الشراب. فكان أن أطاح برأسي القدح الأول، الذي ادعيت أنني شربته قبل مجيئهم وذلك أثناء انتظاري إياهم في فندق دي باري بين الخامسة والسادسة، ورجوت عفو سيمونوف بصورة خاصة وطلبت إليه تفسير موقفي للباقين جميعًا وبخاصة زفيركوف الذي أهنته والذي بدا لي أنني أذكره كما لو كان في حلم". وأضفت

قائلًا لقد كان بودي أن أزورهم جميعًا ولكنني كنت أشعر بصداع فضلًا عن أنني لم أجد في نفسي الجرأة على ذلك. ولشد ما سررت لما كان في أسلوبي من لهجة استخفاف كانت أقرب ما تكون إلى عدم الاكتراث (مع عدم الخروج مطلقًا عن حدود الأدب) فقد كانت تلك اللهجة خليقة بأن تجعلهم يفهمون في الحال أكثر من أية حجة ممكنة أني كنت أنظر إلى كل ما حدث ليلة أمس من تعكير صفو نظرة تميل إلى الحياد وأنني لم أكن قط منهارًا كل الانهيار، كما قد يخيل إليكم أيها الأصدقاء. ولكنني على العكس من ذلك كنت أنظر إلى الموضوع نظرة سيد مهذب يحترم نفسه في هدوء وسكون، "فليس ثمة من يلوم بطلًا صغيرا على ماضيه!".

حدثت نفسي في إعجاب وأنا أقرأ الخطاب قائلًا: "إنه ولا شك يتميز بروح دعابة أرستقراطية! وذلك كله لأنني رجل مثقف راجح العقل! ولو أن ثمة رجلًا آخر في مكاني لما عرف كيف يخلص نفسه ولكن هأنذا قد تخلصت من الموقف وعدت مرحًا كشأني دائمًا وكل ذلك لأنني أحد المثقفين المتعلمين في عصرنا" وربما كانت الخمر هي السبب في كل ذلك فعلًا.. لا ولكنها لم تكن الخمر. فإنني لم أشرب شيئًا ألبتة بين الخامسة والسادسة عندما كنت في انتظارهم. فلقد كذبت على سيمونوف. كذبت عليه في غير حياء. والواقع أنني لم أكن أشعر بالخجل.. ومع ذلك فعليهم اللعنة! إن أهم ما في الموضوع هو أنني تخلصت منه.

وأرفقت بالخطاب ستة روبلات ثم طويته وطلبت إلى أبولون أن يأخذه إلى سيمونوف وعندما علم أبولون أن في الخطاب نقودًا أبدى مزيدًا من الاحترام ووافق على أن يأخذه. وحوالي المساء خرجت للنزهة. ولكنني كنت لا أزال أشعر بالصداع والدوار عقب الليلة السابقة. ولكن انطباعاتي وبالتالي أفكاري كانت تزداد تباينًا واختلاطًا كلما اقترب المساء وزادت الظلمة. كان هناك شيء حي في نفسي يأبى الخمود في أعماق قلبي وضميري. كان لا يفتأ يبدو في صورة كآبة شديدة وانقباض حاد. ورحت أشق طريقي في صعوبة معظم الوقت خلال الشوارع التجارية المزدحمة مخترقًا شارع ميستشانسكي وشارع سادوفي وحديقة يوسوبوف. لقد كان يعجبني دائمًا بوجه خاص التنزه في تلك الشوارع عند الغسق تمامًا في الساعة التي تسير فيها جماعات العمال من جميع الأنواع والأنماط عائدة من عملها اليومي وقد اكفهرت وجوههم من القلق. كانت تعجبني تلك الضوضاء المألوفة وذلك المنظر الذي لا بهرج فيه. ولكنني في تلك المرة ضقت ذرعًا بازدحام الشوارع أكثر من أي وقت مضى. لم أستطع أن أعرف ماذا حدث لي ولم أستطع أن أتبين السبب فيما كنت أشعر به من ضيق، فقد بدا لي أن شيئًا ما لا يفتأ يطفو فوق روحي فيؤلمني ويأبى أن يهدأ. فعدت إلى بيتي وأنا في أشد حالات الاضطراب والقلق. كنت أحس وكأن جرمًا ما يطبق على ضميري.

وقد شغلتني دائمًا فكرة قدوم ليزا. وبدا لي غريبًا أن من بين جميع ذكريات الأمس، ظل هذا الخاطر يعذبني وكأنه – نعم - وكأنه منفصل عن غيره تمامًا. فقد تمكنت عند المساء من نسيان كل ما عداه من خواطر. لقد نفضت يدي منها كلها ورضيت غاية الرضى عن خطابي الذي أرسلته إلى سيمونوف. أمَّا عن ذلك الموضوع فلم أكن راضيًا ألبتة. فقد بدا لي وكأن ليس ثمة ما يشغلني إلا ليزا. ولم أبرح أفكر قائلًا لنفسي: "ماذا يحدث لو أنها جاءت. لا أهمية لذلك. فلتأت! إنه لمن البشاعة أن ترى مثلًا كيف أعيش. فعلى حين أنني كنت أبدو لها بالأمس بطلًا عظيمًا، أصبحت الآن".. يا للشناعة! لقد أهملت نفسي حتى أصبحت غرفتي تبدو وكأنها غرفة شحاذ. ثم كيف أقنعت نفسي بالذهاب لتناول العشاء وأنا في مثل هذه الحالة! وهناك أريكتي الجلدية الأمريكية التي برزت منها أحشاؤها. وذلك الروب المهلهل الذي لا يكاد يستر بدني. وسترى ليزا كل هذا كما سترى أبولون. ولا شك في أن هذا الحيوان سيهينها. إنه سيثبت عينيه عليها ليسيء إليَّ، كما أنني أنا أيضًا سيتولاني الرعب كالعادة فآخذ في الانحناء أمامها والتدثر بالروب ثم أبدأ في الابتسام وفي اختلاق الأكاذيب. يا للوحشية! ولكن ليست الوحشية هي أهم ما في الموضوع! فهناك ما هو أهم وأبغض وأحط! نعم أحط! كما أنني سأضع ذلك القناع الكاذب الخداع مرة أخرى؟!

وعندما مر بذهني ذلك الخاطر استبد بي الغضب في الحال.

وحدثت نفسي قائلًا: "وفيم الكذب والخداع؟ وكيف؟ لقد كنت أتكلم ليلة أمس في إخلاص. وأذكر أنني كنت أصدر عن شعور حقيقي أيضًا. فقد كانت بغيتى هي إثارة ما في نفسها من شعور شريف.. أما بكاؤها فقد أفادها إذ سيكون له أثر طيب في نفسها".

ومع ذلك فلم أستطع أن أشعر بالراحة. وظلت صورة ليزا تطاردني طيلة ذلك المساء (حتى بعد عودتي إلى البيت وحتى بعد الساعة التاسعة عندما قدرت أنها لا يمكن أن تأتي). وأسوأ من ذلك كله أنها كانت لا تفتأ تعاودني وهي في نفس الموقف وبنفس التعبير. فمن بين كل ما حدث ليلة أمس وضحت أمام مخيلتي لحظة معينة، هي تلك اللحظة التي أشعلت فيها عود ثقاب ورأيت وجهها الشاحب المتقلص تبدو عليه نظرة ألم وعذاب. ولشد ما كانت ابتسامتها في تلك اللحظة شوهاء غير طبيعية مثيرة للشفقة! ولكنني وقتئذ لم أكن أعلم أنني بعد مضي خمسة عشر عامًا سأظل أرى ليزا بمخيلتي لا تفارقها ابتسامتها الغريبة الشوهاء المثيرة للشفقة، تلك التي كانت تعلو وجهها في تلك اللحظة.

وفي اليوم التالي وجدت نفسي أميل إلى اعتبار كل ما وقع هراء ومغالاة مرجعهما شدة اضطراب أعصابي. كنت دائمًا أعلم عن نفسي نقطة الضعف هذه وكنت في بعض الأحيان أرتعد خوفًا منها. ورحت أحدث نفسي مرارًا في كل ساعة قائلًا: "إنني أغالي في كل شيء ومن ِهنا كان خطئي". ولكن

خواطري كانت لا تفتأ تنتهي إلى نهاية واحدة، هي أن: "ليزا قادمة على كل حال. هذا هو الاحتمال الغالب". لقد اشتد ضيقي وتبرمي إلى حد أنني كنت أحيانًا أستشيط غضبًا فأصيح راكضًا في أرجاء الغرفة: "إنها قادمة.. إنها قادمة لا محالة! إن لم يكن اليوم فغدًا" وستعرف حقيقتي! يا للرومانسية اللعينة في تلك القلوب الطاهرة البريئة! يا لحطة تلك النفوس العاطفية الشقية ويا لسخفها! كيف يفوتني ذلك؟! كيف يمكن أن يفوتني ذلك؟!".
ولكنني توقفت عندئذ عن التفكير واعترتني حيرة شديدة بالفعل.
وفكرت كيف أنه لم تكن هناك حاجة إلا لبضع كلمات بضع كلمات عابرة.. وكيف أن قليلًا من الوصف المنمَّق (بل الوصف المتكلف المصطنع المستمد من الكتب أيضًا) كان كافيًا لتوجيه حياة بشرية كاملة في الحال الوجهة التي أريدها.
إنها عذرية لا شك في ذلك! إنها التربة البكر!
وأحيانًا كان يخطر بذهني أن أذهب إليها: "وأخبرها بكل شيء" ثم أرجوها ألا تأتي إليَّ. ولكن هذا الخاطر كان يثير في نفسي غضبًا شديدًا يجعلني أعتقد أنني كنت أسحق تلك (الملعونة) ليزا إذا شاءت المقادير أن تكون قريبة مني في ذلك الوقت. إذن لأهنتها وبصقت على وجهها وطردتها وانهلت عليها ضربًا.
ومع ذلك فقد مر يوم ثانٍ ثم ثالث، ولكنها لم تأتِ، وبدأت أشعر بالهدوء، ولشد ما كنت أشعر بالجرأة والمرح بعد الساعة التاسعة. بل كانت تراودني أحيانًا أحلام لذيذة بعض الشيء. فأراني فيها مثلًا مخلِّص ليزا ومنقذها وذلك عن طريق زياراتها لي وأحاديثي معها! فأطورها وأعلمها. ثم ألاحظ في النهاية أنها تهواني، وتهواني بكل جوانحها فأتجاهل ذلك (ولكن فيم التجاهل؟ لست أدري. قد يكون ذلك للتأثير فحسب). وفي النهاية تتولاها الحيرة ويتبدل شكلها وتعتريها الرجفة ثم تجهش بالبكاء وترتمي على قدمي قائلة لي: "إنني مخلصها وإنها تحبني أكثر من أي شيء في الوجود. فتتولاني الدهشة ولكن"..
وأقول لها: "ليزا، هل يمكن أن تتخيلي أن حبك قد غاب عني؟ لقد رأيته كله، وتكهنته كله. ولكنني لم أجد في نفسي الجرأة على المبادرة بالحديث. فقد كنت أخشى لما لي من تأثير عليك أن ترغمي نفسك بدافع من العرفان على الاستجابة لحبي وأن تحاولي إيقاظ شعور في قلبك ربما كان غائبًا ولم أجد في نفسي الرغبة في ذلك.. لما فيه من استبداد.. ومجافاة للذوق (وباختصار أجدني عند هذه النقطة مندفعًا لاستخدام أساليب المراوغة الأوروبية التي تمتاز بسحر يستغلق على الأفهام على طريقة جورج صاند) أما الآن فأنت لي. أنت من خلقي. أنت طاهرة وشريفة أنت زوجتي النبيلة".
"فادخلي بيتي شجاعة حرة
لتكوني فيه رَبَّتَه الحقة"
ثم نبدأ الحياة سويًّا ونسافر إلى الخارج وما إلى ذلك. والحقيقة أن الأحلام بدت إليَّ مبتذلة سخيفة في النهاية وبدأت أسخر من نفسي.

وفضلًا عن ذلك فقد خطر لي أنهم لن يسمحوا لها بالخروج (العاهرة). إنهم ليسوا على استعداد للسماح لهن بالخروج وبخاصة في المساء ذلك على الرغم من تصريحها بأنها لم تستعبد بعد تمامًا وأنها كانت تملك بعض الحقوق (ولكنني لسبب ما تخيلت أنها قادمة في المساء وفي تمام الساعة السابعة).

وهكذا.. فإنها قادمة.. ألا لعنة الله على كل شيء! إنها قادمة لا محالة!

والواقع أن أبولون قد أدى إليَّ صنيعًا بتشتيته انتباهي في ذلك الوقت بما أوتي من وقاحة. فقد أخرجني عن طوري تمامًا! لقد كان كارثة حياتي واللعنة التي صبتها السماء عليَّ، إذ كنا لا نفتأ نتشاحن سنوات بطولها وكنت أشعر نحوه ببغض شديد. يا إلهي لشد ما كرهته! بل أعتقد أنني ما كرهت أحدًا في حياتي كما كرهته وبخاصة في لحظات معينة. كان رجلًا وقورًا في منتصف العمر يعمل جزءًا من وقته خياطًا. ولكنه لسبب مجهول كان يحتقرني احتقارًا لا مزيد عليه وكان ينظر إليَّ في ازدراء لا يطاق. رغم أنه في الحقيقة كان ينظر إلى الجميع في ازدراء. إن نظرة واحدة إلى ذلك الشعر الأصفر المنعم بالفرشاة وإلى تلك الخصلة الممشطة على جبهته والمدهونة بزيت عباد الشمس وإلى فمه الوقور الذي انطبقت شفتاه على شكل الحرف الإنجليزى "v" إن نظرة واحدة إلى كل هذا كانت تُشعر الإنسان بأنه يواجه رجلًا لا يتطرق إليه الشك في نفسه ألبتة. كان دعيًّا إلى أقصى حد بل كان أعظم من رأيت في الوجود من الأدعياء. وفضلًا عن ذلك فقد كان له من الكبرياء ما لا يليق إلا بالإسكندر المقدوني. كان يعشق كل زرار في سترته وكل ظفر في أصابعه. كان يعشقه العشق كله كما كان يبدو عليه ذلك! أما عن سلوكه نحوي فكان طاغية بكل ما في الكلمة من معنًى. فلم يكن يحدثني إلا قليلًا. وكان إذا ما وقع بصره عليَّ يوجه إليَّ نظرة ثابتة تنم عن الثقة بالنفس في جلال وعظمة وعن السخرية التي لا تتغير مما كان يسوقني أحيانًا إلى الغضب الجامح. كان يقوم بعمله وكأنه يؤدي إليَّ أعظم صنيع. وذلك على الرغم من أنه لم يكد يفعل شيئًا بل في الواقع لم يكن يعد نفسه ملزمًا بأن يفعل شيئًا. لم يكن هناك أدنى شك في أنه كان يعدني أعظمَ أحمق في الوجود وأنه لا يربطه بي إلا أجره الذي يتقاضاه في كل شهر. فقد قبل ألا يفعل شيئًا مقابل سبعة روبلات شهريًّا. إن ما عانيته منه كفيل بأن يغفر لي ذنوبًا كثيرة. ولقد بلغت بي الكراهية أن وقع خطاه كان يوشك أحيانًا أن يسلمني لنوبات من التشنج. وكانت لثغته بالذات هي أبغض شيء إلى نفسي. فلا بد أن لسانه كان أطول مما يجب أو شيئًا من هذا القبيل لأنه كان لا يفتأ يلثغ ويبدو عليه أنه فخور بذلك كل الفخر ظنًّا منه أن ذلك كان يزيد كثيرًا من اعتباره. كان يتكلم في بطء وبنغمة منتظمة متزنة بينما يضع يديه خلف ظهره ويثبت عينيه على الأرض. ولشد ما كان يثيرني عندما يقرأ المزامير بصوت مرتفع خلف جدار غرفته الخشبي. وطالما تعاركت معه بسبب هذه القراءة! ولكنه كان شديد الشغف بالقراءة بصوت مرتفع في الأمسيات بنغمة بطيئة مملة متكررة

وكأنها لحن جنائزي. ومن الطريف أنه انتهى إلى ذلك. فهو الآن يحترف قراءة المزامير على الموتى وهو في نفس الوقت يقتل الجرذان ويصنع طلاء الأحذية. ولكنني وقتذاك لم أستطع التخلص منه فقد بدا لي أنه مرتبط بحياتي ارتباطًا كيميائيًّا. وفضلًا عن ذلك لم يكن من الممكن إغراؤه بالموافقة على ترك خدمتي. ولم أستطع أن استأجر لنفسي غرفة مؤثثة فقد كان مسكني بمثابة وحدتي الخاصة. كان قوقعتي وكهفي الذي أخفي فيه نفسي عن الجنس البشري كله وقد بدا لي أن أبولون لسبب ما جزء لا يتجزأ من ذلك المسكن. ولم أستطع طرده مدة سبع سنين.

لقد كان من المستحيل مثلًا أن أتوانى في دفع أجره يومين أو ثلاثة. فلو فعلت لأقام الدنيا وأقعدها ولما عرفت مكانًا أخفي فيه نفسي. ولكنني كنت في تلك الأيام ساخطًا على الجميع فاستقر رأيي لسبب ما على (معاقبة) أبولون وعلى الامتناع عن دفع أجره مدة أسبوعين. لقد كان في نيتي أن أفعل ذلك منذ زمن طويل - طيلة السنتين الأخيرتين - لا لسبب إلا لأعلمه ألا يصطنع الكبرياء معي وأريه أنني لو شئت لمنعت عنه أجره. وانتويت ألا أشير إلى ذلك وتعمدت الصمت بالفعل لأحطم كبرياءه وأرغمه على المبادرة بالحديث عن أجره. ثم أخرج الروبلات السبعة من درج مكتبي وأريه أنني أمتلك النقود وأنني قد وضعتها جانبًا عن عمد ولكنني لا أريد، لا أريد، لا أريد ببساطة أن أدفع له أجره، لا أريد ذلك لأن تلك هي رغبتي فحسب ولأنني "أنا السيد ولي وحدي أن أقرر ذلك" لأنه لم يُبدِ لي الاحترام الكافي بل كان وقحًا. أما إذا ما طلب منّي أجره في احترام فقد يهدِّئ ذلك من روعي وأمنحه إياه وإلا فقد ينتظر أسبوعين آخرين أو ثلاثة أو شهرًا بأكمله.

ولكنه تغلب عليَّ برغم غضبي.. فلم أستطع الصمود له مدة أربعة أيام. إذ بدأ بما كان يبدأ به دائمًا في مثل تلك الحالات (فقد مرت من قبل مثل هذه الحالات من جانبه ومثل تلك المحاولات من جانبي كما أرجو أن يلاحظ أنني كنت أعرف كل هذا من قبل. كنت أعرف حيله القذرة عن ظهر قلب) فإنه يبدأ بأن يسلط عليَّ نظرة غاية في الصرامة ويظل محملقًا فيَّ عدة دقائق في كل مرة وبخاصة عندما يلقاني أو يراني خارج المنزل. فإذا ما صمدت له وتجاهلت نظراته المحملقة فإنه يأخذ في اتباع وسائل تعذيب أخرى دون أن يخرج عن صمته. فإذا به فجأة وبغير مناسبة يدخل غرفتي في هدوء أثناء انشغالي بالقراءة أو بالسير في الغرفة ويقف بالباب واضعًا إحدى يديه خلف ظهره وإحدى قدميه خلف الأخرى ويسلط عليَّ نظرة بالغة الصرامة تفيض بالازدراء. فإن سألته فجأة عما يريد لم يجب بل يظل ينظر إليَّ في إصرار مدة بضع ثوان ثم يستدير في بطء مطبقًا شفتيه على صورة غريبة ومتخذًا مظهر الأهمية الشديدة ويعود أدراجه إلى غرفته في بطء أيضًا. وبعد مضي ساعتين يخرج من غرفته مرة أخرى ويمثل أمامي بنفس الطريقة. وقد حدث مرة أثناء غضبي الشديد أنني لم أسأله حتى عن بغيته بل اكتفيت بأن رفعت

رأسي في حدة وسطوة وأخذت أبادله النظرات وهكذا أخذ يحملق كل منا في الآخر مدة دقيقتين. ثم استدار في النهاية في بطء ووقار واختفى عني مرة أخرى مدة ساعتين.
وإذا لم يفلح كل هذا في إعادتي إلى صوابي وأصررت على تمردي فإنه يأخذ فجأة في التنهد أثناء النظر إليَّ تنهدات طويلة عميقة وكأنه يقيس بها أعماق خستي ونذالتي وينتهي الأمر بالطبع بانتصاره الساحق. فأحتد وأصرخ ولكنني أرغم مع ذلك على تنفيذ رغبته..
ولكنه في هذه المرة ما أن بدأ في مناورات نظراته المعهودة حتى خرجت عن طوري وهاجمته في غضب ثائر. فقد كانت أعصابي متوترة لا تحتمل المزيد.
صحت قائلًا له في جنون وهو يستدير في بطء وصمت واضعًا إحدى يديه خلف ظهره ومتجهًا نحو غرفته: قف مكانك! قف! تعالَ هنا! أقول لك تعالَ هنا! ولا بد أن صرختي كانت على صورة غير طبيعية جعلته يستدير وينظر إليَّ في شيء من الحيرة والعجب ومع ذلك فإنه أصر على الصمت فأسلمني ذلك لغضب شديد.
- "كيف تجرؤ على أن تأتي إلي هنا وتنظر إليَّ على هذه الصورة دون أن أرسل في طلبك؟ أجب! وبعد أن نظر إليَّ في هدوء مدة نصف دقيقة أخذ يستدير على عقبيه مرة أخرى".
فزأرت راكضًا نحوه قائلًا: "قف. لا تتحرك! أجب الآن. ما الذى جئت لتشاهده؟".
فأجاب بعد فترة صمت أخرى بلثغة بطيئة متزنة رافعًا حاجبيه ومحركًا رأسه في هدوء من جانب إلى آخر، كل هذا في سكينة تثير الأعصاب قائلًا: "إذا كانت لديك أية أوامر تلقي بها إليَّ فمن واجبي أن أُنفِّذها".
فصحت وقد احمر وجهي من الغضب قائلًا: "ليس هذا هو ما أسألك عنه أيها الجلاد! سأقول لك أنا نفسي لماذا جئت. إنني لا أعطيك أجرك. وتمنعك كبرياؤك من الانحناء لطلب هذا الأجر ولذلك فإنك تأتي لتعاقبني بنظراتك الحمقاء بقصد إزعاجي ولكنك لا ترتاب في مدى حماقة هذا العمل، نعم حماقة! حماقة!"..
لقد همَّ بأن يستدير مرة أخرى دون أن ينبس بكلمة ولكنني أمسكت به.
وصحت قائلًا له: "أنصت، ها هي ذي النقود، أترى؟ ها هي ذي (لقد أخرجتها من درج المنضدة) ها هي الروبلات السبعة كاملة ولكنك لن تأخذها. لن.. تأخذ.. ها حتى تأتي إليَّ في احترام مطأطئ الرأس لترجو عفوي.. أتسمعني؟".
فأجابني وفي صوته ثقة بالنفس أبعد ما تكون عن الطبيعة قائلًا: "هذا لا يمكن أن يحدث".
فقلت: "ولكنهِ سيحدث، أقسم لك بشرفي أنه سيحدث!".

ثم أردف قائلًا وكأنه لم يلحظ صيحاتي مطلقًا: "فليس ثمة ما أرجو عفوك عنه. وفضلًا عن ذلك فقد دعوتني (جلادًا) مما يخولني حق استدعائك إلى مركز الشرطة في أية لحظة لأنك أهنتني".

فزأرت قائلًا: "اذهب واستدعني. اذهب في الحال. هذه الدقيقة! هذه اللحظة! فأنت على الرغم من ذلك جلاد".

ولكنه لم يزد على النظر إليَّ ثم استدار على عقبيه ومشى إلى غرفته في خطًى متئدة دون أن ينظر حوله غير عابئ بصيحاتي المدوية له.

وقررت بيني وبين نفسي قائلًا: "لولا ليزا لما حدث شيء من هذا".

وبعد أن انتظرت دقيقة واحدة ذهبت أنا نفسي خلف الحاجز في مهابة ووقار ولكن قلبي كان يخفق في بطء وعنف.

وقلت في هدوء ووضوح رغم أنني لاهث الأنفاس: "أبولون، اذهب في الحال دون أن تنتظر دقيقة واحدة وأحضر ضابط الشرطة".

كان هو في أثناء ذلك قد استقر على مقعده إلى منضدته ووضع منظاره على عينيه وراح يعمل في حياكة بعض الملابس. ولكنه ما أن سمع قولي حتى انفجر ضاحكًا في قهقهة مدوية، قلت: "في الحال، هذه الدقيقة! اذهب وإلا فلن تستطيع أن تتخيل ما سيحدث".

فقال دون أن يرفع رأسه وهو أشد ما يكون اتئادًا في لثغته، بينما راح يدخل الخيط في ثقب الإبرة.

- "لا بد أنك قد فقدت عقلك فمن ذا الذي سمع عن رجل يرسل في طلب الشرطة للتحقيق معه؟ أما عن خوفي منك، فإنك تزعج نفسك بلا مبرر فلن يجديك ذلك فتيلًا".

فصرخت قابضًا على كتفه قائلًا: "اذهب!".

وأحسست أنني سأضربه بعد دقيقة واحدة.

ولكنني في تلك اللحظة وأنا في الطرقة لم ألحظ الباب وهو يفتح في هدوء وبطء ويدخل منه شبح يقف قليلًا ثم يأخذ في النظر إلينا حائرًا مشدوهًا. وما أن لمحت هذا الشبح حتى اندفعت عائدًا إلى غرفتي وأنا أكاد أسقط في إغماءة من الخجل. وهناك أسندت رأسي إلى الحائط وأمسكت شعري بكلتا يديَّ ووقفت على هذا النحو بلا حراك.

وبعد دقيقتين طرق سمعي وقع خطى أبولون الحازمة المتئدة. ثم قال وهو ينظر إليَّ في قسوة غريبة: "وهناك امرأة تسأل عنك". ثم تنحى جانبًا وأدخل ليزا. وظل واقفًا في مكانه يحملق فينا بسخرية.

فأمرته في يأس قائلًا: "انصرف. انصرف."

وفي تلك اللحظة بدأت الساعة تئز أزيزها ثم دقت السابعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسِع

ادخلي بيتي جريئة حرة
لِتَكُنِي فيه ربته الحقة
ووقفت أمامها منهارًا حزينًا مرتبكًا على صورة منفرة، وأعتقد أنني ابتسمت وأنا أبذل أقصى جهدي لأتدثر بذلك الروب المهلهل تمامًا كما تخيلت المنظر منذ زمن غير بعيد في إحدى نوبات الاكتئاب. ومع أن أبولون قد انصرف بعد أن ظل يحملق فينا مدة دقيقتين فإن ذلك لم يبعث في نفسي مزيدًا من الراحة. وقد زاد الأمر سوءًا أنها هي أيضًا كانت فريسة الارتباك على نحوٍ أشد في الواقع مما كنت أتوقع. وكان منظري هو السبب في ذلك بالطبع.
قلت في آلية وأنا أحضر لها مقعدًا بالقرب من المنضدة: "اجلسي".
ثم جلست أنا على الأريكة، فجلست مذعنة لأمري في الحال وراحت تحملق فيَّ وقد اتسعت حدقتاها متوقعة بغير شك أن أقول لها شيئًا على الفور. وقد أسلمتني سذاجتها هذه في توقع الأمور لغضب شديد ولكنني كبحت جماحي.
كان ينبغي أن تحاول تجاهل ما رأت وكأن كل شيء كان عاديًّا مألوفًا ولكنها كانت بدلًا من ذلك.. وتولاني إحساس غامض بأنها يجب أن تدفع ثمن كل هذا غاليًا.
بدأت أتكلم متلعثمًا وأنا أعلم أنها بداية مخطئة قائلًا: "لقد وجدتني في موقف غريب يا ليزا".
وما أن رأيت الحمرة تعلو وجهها فجأة حتى صحت قائلًا:
- "لا. لا. لا تتخيلي شيئًا".
ثم تمتمت قائلًا: "إنني لست خجلًا من فقري.. ولكنني على النقيض من ذلك أنظر في فخر إلى فقري. فأنا فقير ولكنني شريف.. ففي وسع الإنسان أن يكون فقيرًا وشريفًا. ومع ذلك.. هل ترغبين في قدح من الشاي؟".
وأجابت: "لا..".
فقلت: "انتظري دقيقة".
ووثبت من مكاني وجريت إلى أبولون فقد كان عليَّ ان أخرج من الغرفة بطريقة ما.
وهمست قائلًا في سرعة محمومة ملقيًا أمامه بالروبلات السبعة التي ظللت قابضًا عليها طيلة الوقت:أبولون، ها هو أجرك. أترى؟ إني أعطيك إياه ولكنك في مقابل هذا يجب أن تخفَّ لنجدتي. أحضر لي شايًا واثنتي عشرة كعكة جافة من المطعم. إنك إذا لم تذهب فسأكون في أشد التعاسة! إنك لا تعلم من هي هذه المرأة.. إنها، كل شيء! قد يخيل إليك شيء ما.. ولكنك لا تعلم من هي هذه المرأة!.. إنها كل شيء! قد يخيل إليك شيء ما.. ولكنك لا تعلم من هي هذه المرأة!".

كان أبولون قد جلس إلى عمله ووضع منظاره على عينيه مرة أخرى. نظر إلى النقود متسائلًا في أول الأمر دون ان يتكلم ودون أن يضع الإبرة من يده ثم عاد إلى التشاغل بإبرته التي لم يكن قد أدخل فيها الخيط بعدُ، دون أن يعيرني أدنى انتباه ودون أن يحير جوابًا ما. انتظرت أمامه مدة ثلاث دقائق واضعًا ذراعي على صدري على طريقة نابليون. وقد تصبب العرق على صدغي. وامتقع وجهي. لقد أحسست بذلك. ولكن حمدًا لله فلا بد أنه قد ثارت في نفسه الشفقه وهو ينظر إليَّ. فإنه لم يكد ينتهي من وضع الخيط في ثقب الإبرة حتى نهض من على مقعده في اتئاد وحرك مقعده إلى الوراء في اتئاد وخلع منظاره في اتئاد ثم عدَّ النقود في اتئاد وفي النهاية سألني من فوق كتفه قائلًا: "هل أحضر لك شايًا كاملا؟" ثم غادر الغرفة في اتئاد. وطرأت على ذهني فكرة وأنا في طريقي عائدًا إلى ليزا: "لم لا أولِّي هاربًا وأنا على هذه الحال تمامًا، مرتديًا ذلك الروب إلى أي مكان وليكن ما يكون؟".
ولكنني عدت إلى الجلوس. وراحت ليزا تنظر إليَّ في قلق. وخيَّم علينا الصمت مدة بضع دقائق. وصرخت فجأة وأنا أضرب المائدة بقبضتي، فانبثق الحبر من المحبرة قائلًا: "سأقتله". فصاحت مذعورة قائلة: "ماذا تقول!".
فصرخت قائلًا وأنا أضرب المائدة بغتة في جنون مطبق ولكنني كنت مدركًا تمامًا في نفس الوقت لما في مثل هذا الجنون من سخف: "سأقتله! سأقتله! إنك لا تعلمين يا ليزا ما يفعله بي هذا الجلاد. إنه جلادي.. لقد ذهب الآن ليحضر بعض الكعك الجاف. إنه..".
وفجأة انفجرت باكيًا. كانت نوبة هستيرية. ولشد ما أحسست بالخجل وأنا أنشج بالبكاء ولكنني مع ذلك لم أستطع التحكم في نفسي.
فتولاها الذعر.
وصاحت قائلة في اهتمام شديد بي: "ماذا أصابك؟ ماذا بك؟".
فتمتمت قائلًا في صوت ضعيف: "ماء. أعطني ماء. هناك!".
ومع ذلك فقد كنت أدرك بيني وبين نفسي أنني لم أكن في حاجة إلى ماء ولم أكن في حاجة إلى الغمغمة بصوت ضعيف. ولكنني كنت أتكلف ذلك لإنقاذ الموقف رغم أن النوبة كانت حقيقية لا تكلف فيها.
فأعطتنى الماء وهي تنظر إليَّ في حيرة وذهول. وفي تلك اللحظة أحضر أبولون الشاي. وبدا لي فجأة أن ذلك الشاي العادي المبتذل كان تافهًا رخيصًا للغاية بعد كل ما حدث. واحمر وجهي خجلًا. نظرت ليزا إلى أبولون في انزعاج واضح. ولكنه غادر الغرفة دون أن ينظر إلى أحد منا. سألتها قائلًا وأنا أنظر إليها في ثبات بينما رحت أرتجف من القلق والتطلع لمعرفة ما يدور بخلدها.
- "هل تحتقرينني يا ليزا؟".
فارتبكت ولم تعرف بماذا تجيب.
قلت لها غاضبًا: "تناولي الشاي".

كنت غاضبًا على نفسي ولكن ليزا بالطبع هي التي يجب أن تدفع ثمن كل هذا. وانبثق في قلبي حقد شديد عليها حتى لقد كان من الممكن أن أقتلها. ولكي أنتقم لنفسي منها أقسمت بيني وبين نفسي ألا أقول لها كلمة طيلة الوقت. وحدثت نفسي قائلًا: "إنها السبب في كل ذلك".
وساد الصمت بيننا خمس دقائق. وظل الشاي أمامنا على المائدة لم تمسسه يد، وبلغ بي الأمر أنني أحجمت عامدًا عن البدء في الحديث لأزيد من ارتباكها. فقد كان مما يحرجها أن تبدأ هي وحدها بالكلام. وراحت تنظر إليَّ عدة مرات في ارتباك حزين. ولكنني التزمت الصمت في عناد وإصرار. ولا شك أن هذا الصمت كان يؤلمني أكثر مما يؤلمها لأنني كنت أدرك تمامًا ما في حماقتي الحاقدة من نذالة منفرة ولكنني في نفس الوقت لم أستطع التحكم في نفسي.
بدأت حديثها لتقطع حبل الصمت على صورة ما قائلة: "أريد أن.. أهرب.. من هناك نهائيًّا".
ولكن يا للفتاة المسكينة! لقد كان ذلك بالضبط هو ما يجب أن تتجنب الحديث عنه في تلك اللحظة الحرجة مع رجل في مثل ما كنت عليه من حماقة وسخف. ولا ريب أنني أحسست بألم في قلبي لما أثارته في نفسي صراحتها الفجة التي لا مبرر لها من شفقة ورثاء. ولكن شيئًا بغيضًا في نفسي، خنق كل شعور بالشفقة أو الرحمة. بل إنه حفزني إلى مزيد من الحقد. فلم أعبأ بما يحدث. ومرت خمس دقائق أخرى.
ثم بدأت مترددة وصوتها لا يكاد يسمع وهي تنهض واقفة قائلة: "ربما كنت أعوقك عن شيء ما".
ولكنني ما أن رأيت أول بادرة لكبريائها الجريحة حتى اعترتني رجفة حقيقية من الحقد فانفجرت في الحال.
وبدأت قائلًا وأنا ألهث دون أن أعبأ بوجود أي ترابط منطقي في كلماتي: "ما الذي جاء بك إليَّ؟ هل لك أن تخبريني بهذا؟".
وددت لو أطلقت العنان لنفسي دفعة واحدة. بل إنني لم أكترث للطريقة التي أبدأ بها.
فصحت قائلًا وأنا لا أكاد أعي ما أفعل: "لم جئت؟ أجيبي، أجيبي! سأقول لك يا بنيتي العزيزة لماذا جئت. لقد جئت لأنني تكلفت الرقة معك وقتذاك. فأنت الآن لينة كالزبد تتوقين للمزيد من العواطف الرقيقة. إذن فلك أن تعلمي أنني كنت أضحك منك وقتذاك وأنني أضحك منك الآن. لماذا ترتجفين؟ نعم! فقد كنت أضحك منك! لقد سبق أن أهانني إخواني الذين جاؤوا قبلي في ذلك المساء ونحن نتناول العشاء قبل مجيئي إليك بوقت قصير. وتوجهت إليكم قاصدًا أن أضرب أحدهم وهو ضابط. ولكنني لم أفلح في ذلك، إذ أنني لم أعثر عليه. فكان عليَّ أن أثأر لتلك الإهانة من أي شخص لأسترد اعتباري. فجئت أنت وصببت عليك جام غضبي وسخرت منك. لقد أهنت فأردت أن

أهين. لقد عوملت كخرقة بالية فأردت أن أظهر قوتي.. هذا هو ما حدث وتخيلت أنت أنني قادم عمدًا لإنقاذك. نعم؟ لقد تخيلت هذا؟ لقد تخيلت هذا؟".
أدركت أنها قد يلتبس عليها الأمر ولا تعي كل ما قلته بالضبط، ولكنني أدركت في نفس الوقت أنها ستستوعب خلاصة الموضوع استيعابًا تامًّا. وهذا هو ما حدث فعلًا. فقد أبيض وجهها كالمنديل وهمت بأن تقول شيئًا بينما راحت شفتاها ترتجفان على صورة مؤلمة ولكنها سقطت على مقعدها وكأنها تلقت ضربة قاسية على رأسها. وظلت طيلة الوقت بعد ذلك تصغي إليَّ وقد انفرجت شفتاها واتسعت حدقتاها وهي ترتجف من الرعب الشديد، لقد أذهلها ما في كلماتي من هزء وسخرية نعم هزء وسخرية.
ثم أردفتُ قائلًا وأنا أثب من مقعدي وأذرع الغرفة أمامها ذهابًا وجيئة:
- أنقذك! ممَ أنقذك! قد أكون أنا أسوأ منك حالًا. لمَ لمْ تقذفى بتلك الحقيقة في وجهي وأنا ألقي عليك موعظتي وتقولين لي: "ولكن ما الذي جاء بك أنت إلى هنا؟ أجئت لتقرأ علينا موعظة؟" إنها السيطرة! السيطرة هي التي كنت أبغيها وقتئذ. إنها الملهاة. لقد كنت أبغي أن أفجِّر دموعك وأذلك وأهينك وأدفعك إلى الجنون، هذا هو ما كنت أبغيه وقتذاك! ولا شك أنني لم أستطع أن أواصل ذلك لأنني مخلوق تعس فتولاني الرعب، وإذ بي لحماقتي أعطيك عنواني ولا أدري لذلك سببًا. وقبل أن أصل إلى بيتي بعد هذا رحت أصب عليك اللعنات والسباب من أجل هذا العنوان. لقد كرهتك بسبب ما قلته لك من أكاذيب. لأنني لا أحب إلا اللعب بالألفاظ ولا أحب إلا الأحلام. ولكن أتدرين؟ إن ما أبغيه حقيقة هو أن تذهبوا جميعًا إلى الجحيم! هذا هو ما أبغيه. أريد أن تتركوني في سلام. نعم فإنني على استعداد لأن أبيع العالم في الحال بلا مقابل ما دمتم تتركوني في سلام. هل يُدمَّر العالم أجمع أم أحرم أنا من هدوئي وصفائي؟ أقول فليُدمَّر العالم ما دمت متمتعًا بهدوئي. هل كنت تعلمين ذلك أم لا؟ وعلى أية حال فإنني أعلم أنني وغد نذل وأناني بليد. لقد ظللت هنا أرتجف طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة كلما فكرت في زيارتك لي. وهل تعلمين ما الذي أقلقني بالذات طيلة هذه الأيام الثلاثة؟ أنني ظهرت أمامك في صورة ذلك البطل ثم تشاهدينني الآن في هذا الروب التعس الممزق الحقير لقد قلت لك منذ لحظة أنني لست خجلًا من فقري. إذن فلك أن تعلمي الآن أنني خجل منه. بل إنني خجل منه أكثر من أي شيء آخر. وخوفي منه يفوق خوف اللص من اكتشاف أمره. لأنني أبدو في كبريائي وكأن جلدي قد سلخ عن بدني حتى لتؤلمني هبة الريح. ولا شك أنك تدركين الآن أنني لن أغفر لك رؤيتك إياي مرتديًا هذا الروب التعس وَأنا أتهجم على أبولون كالكلب الحقود. لقد كان مخلصك وبطلك السابق يهجم كالكلب الأجرب الأشعث على خادمه بينما أخذ خادمه يسخر منه! ولن أغفر لك تلك الدموع التي لم أتمالك نفسي من أن أذرفها أمامك الآنِ كما تفعل أية امرأة بلهاءِ إذا ما أشعرت

بالخجل من نفسها! كما أنني لن أغفر لك أيضًا اعترافي هذا أمامك الآن! نعم، يجب أن تدفعي ثمن كل هذا لأنك جئت إلى هنا ولأنني وغد لأنني أشد ديدان الأرض حقدًا وحماقة وحسدًا. تلك الديدان التي لا تفضلني في شيء ولكنها لسبب لا أدريه لا تعرف الارتباك والحيرة. بينما أظل أنا دائمًا هدفًا لإهانة كل حشرة. هذا هو مصيري المحتوم! وماذا يعنيني إذا كنت لا تفهمين كلمة واحدة من هذا؟ ماذا يهمني؟ ماذا يهمني من أمرك سواء ذهبت إلى الجحيم هناك أم لم تذهبي؟ أتفهمين؟ لشد ما سأبغضك بعد ما قلته الآن لوجودك هنا وإنصاتك لي. إن الإنسان لا يكاد يتكلم على هذه الصورة مرة واحدة في حياته ولا يكون ذلك إلا في نوبة جنون! ماذا تبغين أكثر من هذا؟ لماذا تواجهينني حتى الآن بعد كل هذا؟ لما تزعجينني؟ لم لا تذهبين؟".
ولكن حدث شيءغريب في تلك اللحظة. لقد ألفت أن أقتبس أفكاري وتخيُّلاتي كلها من الكتب وأن أصور لنفسي كل شيء في الوجود تمامًا كما نسجته في أحلامي من قبل وتأصلت فيَّ تلك العادة فلم أستطع أن أفهم في الحال هذا الظرف الغريب. فإن ما حدث أن ليزا قد فهمت من قولي المهين أكثر بكثير مما كنت أتخيله. لقد فهمت من كل هذا ما تفهمه أية امرأة إذا كانت تشعر بالحب الحقيقي، فهمت أنني كنت شقيًّا تعسًا.
ففي تعبير وجهها حلت الحيرة الآسفة الحزينة محل الذعر والمهانة في أول الأمر. وعندما بدأت أَصمُ نفسي بالنذالة والخسة وطفرت من عيني الدموع (فقد تخللت دموعي هذا الهجوم كله) أخذ وجهها كله يتلوى ويتقلص. وهمَّت بالنهوض لتوقفني. وعندما انتهيت لم تلتفت إلى صياحي قائلًا: "لماذا أنت هنا؟ لم لا تذهبين؟" ولكنها أدركت فقط أنني لا شك قد عانيت كثيرًا من المرارة لأقول كل هذا. وفضلًا عن ذلك فقد كانت الفتاة المسكينة محطمة تمامًا وكانت تعد نفسها دوني بمراحل فكيف يمكنها أن تشعر بالغضب والكراهية؟ فقفزت فجأة من مقعدها بدافع لا سبيل إلى مقاومته ومدَّت إليَّ يديها في شوق ولهفة رغم أنها كانت لا تزال تشعر بالتردد ولا تجسر على الحركة.. وفي تلك اللحظة حدث تحول تام في عواطفي أنا أيضًا. ثم اندفعت فجأة نحوي وألقت بذراعيها حولي وانفجرت باكية. فلم أستطع أن أتمالك نفسي أنا أيضًا وأجهشت بالبكاء كما لم أفعل قط في حياتي من قبل.
وبعد جهد أفلحت في أن أنطق بهذه الكلمات: "إنهم لا يتيحون لي الفرصة.. فلا يمكنني أن أكون طيب النفس!".
وذهبت إلى الأريكة وانكفأت على وجهي ورحت أجهش بالبكاء مدة ربع ساعة وأنا في حالة من الهستيريا الحقيقية. واقتربت مني وأحاطتني بذراعيها ثم ظلت على هذا الوضع ساكنة جامدة. ولكن الذي أقلقني هو أن تلك الهستيريا كان لا يمكن أن تستمر إلى الأبد (إني أكتب الحقيقة البغيضة) ثم أحسست وأنا منكفئ على وجهي فوق الأريكة دافنًا رأسي في وسادتي الجلدية القذرة، أحسست في أعماقي تدريجيًّا بشعور بعيد لا إرادي ولكنه لا يقاوم بحرج

الموقف عندما أرفع رأسي وأنظر إلى ليزا مباشرة في وجهها. لماذا كنت خجلا؟ لست أدري ولكنني كنت خجلًا. كما خطر أيضًا على ذهني المكدود أن دورينا الآن قد تغيرا تمامًا فأصبحت هي البطلة بينما صرت أنا مخلوقًا منهارًا مهينًا كما كانت هي من قبل في تلك الليلة قبل ذلك بأربعة أيام.. خطر كل هذا على ذهني في أثناء تلك الدقائق التي كنت فيها منكفئًا على وجهي فوق الأريكة.

يا إلهي! لا شك أنني لم أكن أحسدها وقتذاك.

لست أدري فإنني حتى هذا اليوم لا أستطيع أن أجزم كما أنني كنت حينذاك بالطبع أقل قدرة مني الآن على فهم ما أشعر به. لم يكن لي غنًى عن السيطرة على شخص ما والاستبداد به.. ولكن لا سبيل إلى تفسير أي شيء بالعقل والمنطق ولهذا فلا جدوى من التفكير والتعليل.

ومع ذلك فقد تغلبت على نفسي ورفعت رأسي. كان عليَّ أن أفعل ذلك إن عاجلًا أو آجلًا.. وإني لمقتنع حتى هذا اليوم أن خجلي من النظر إليها فحسب كان سببًا في إيقاظ شعور آخر في قلبي وإشعاله.. شعور السيطرة والتملك. فالتمعت عيناي بالشهوة وأمسكت يديها بقوة. لشد ما كرهتها في تلك اللحظة ولشد ما انجذبت إليها! وكان كلا هذين الإحساسين يلهب أحدهما الآخر. كان هذا الحب أشبه ما يكون بعمل انتقامي. فبدت على وجهها الدهشة في أول الأمر بل الرعب والفزع ولكنها لم تلبث أن عانقتني في دفء ونشوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل العَاشِرُ

وبعد ربع ساعة كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا في قلق جنوني. كنت لا أفتأ أذهب إلى الحاجز من دقيقة إلى أخرى حيث أنظر خلسة إلى ليزا من خلال شق فيه.. كانت جالسة على الأرض ورأسها مستند إلى الفراش. ولا بد أنها كانت تبكي. ولكنها لم تتحرك فغاظني ذلك. لقد فهمت كل شيء في هذه المرة. لقد أهنتها في النهاية.. ولا حاجة بي لأن أصف ذلك. لقد أدركت أن انفجار الشهوة عندي لم يكن إلا انتقامًا وتحقيرًا جديدًا وأنه قد أضيف الآن إلى كراهيتي الأولى التي لا تكاد تجد ما يبررها كراهية شخصية منشؤها الحسد.. على أنني لا أقطع بأنها فهمت كل ذلك في وضوح ولكنها أدركت على وجه اليقين أني رجل حقير بل وأسوأ من ذلك أنني غير قدير على حبها.

إني أعلم أنه سيقال لي أن ذلك شيء لا يمكن تصديقه ولكن الذي لا يمكن تصديقه هو أن أكون على تلك الصورة من الحقد والحماقة. قد يقال أيضًا إنه لمن الغريب ألا أحبها أو على أية حال ألا أقدر حبها لي. ولكن فيم الغرابة؟ فقد كنت قبل كل شيء غير قادر على الحب ومازلت أكرر أن الحب في نظري كان يعني الاستبداد وإظهار تفوقي النفسي. لم أستطع في حياتي قط أن أتخيل أي نوع آخر من الحب. وقد بلغ بي الأمر في هذه الأيام أن أتصور أحيانًا أن الحب يقوم حقيقة على الحق الذي يهبه المحبوب لحبيبه طواعية واختيارًا في أن يطغى عليه ويستبد به.

إنني لم أتخيل الحب في أحلامي التي كانت تتراءى لي في عالمي السفلي إلا على صورة عراك ونضال. فقد كنت أشرع فيه دائمًا بالبغض والكراهية وأفرغ منه بالسيطرة النفسية ولا أعرف بعد ذلك مطلقًا ماذا أفعل بمحبوبي بعد إخضاعه والسيطرة عليه. وماذا يثير العجب في ذلك ما دمت قد نجحت في إفساد نفسي وما دمت قد انفصلت عن حياة الواقع "على صورة جعلتني أفكر فعلًا في أن ألوم ليزا وأُخْجِلها لمجيئها إليَّ لتستمع إلى المزيد من (العواطف الرقيقة) ولم أستطع حتى التكهن بأنها لم تأتِ إليَّ لتسمع مزيدًا من العواطف الرقيقة بل لكي تهبني حبها لأن كل صلاح في نظر المرأة وكل إنقاذ من الدمار أيًّا كان نوعه وكل بعث خلقي يدخل في نطاق الحب ولا يمكن أن يظهر إلا على هذه الصورة.

ومع ذلك فلم أبغضها كثيرًا وأنا أضطرب في أنحاء الغرفة مختلسًا النظر إليها من شق الحاجز. ولكنني كنت أشعر فحسب بضيق لا يطاق لوجودها هناك. كان بودي أن تختفي. إذ أردت أن أنعم (بالهدوء) وأن أترك وحدي في عالمي السفلي. (فحياة الواقع) كانت تثقل عليَّ بما فيها من جديد حتى كدت أختنق.

ولكن مرت عدة دقائق وهي لا تزال في مكانها ساكنة لا تتحرك وكأنها في غيبوبة. ووجدت في نفسي القحة أن أطرق الحاجز طرقات خفيفة كأنني

أذكرها.. فارتاعت وهبت واقفة وانطلقت تبحث عن منديلها وقبعتها وسترتها كأنها تولي هاربة مني.. ثم أتت بعد دقيقتين من خلف الحاجز. ونظرت إليَّ بعينين مثقلتين. فابتسمت لها ابتسامة صفراء حاقدة اغتصبتها اغتصابًا للمحافظة على المظاهر وأشحت بوجهي بعيدًا عن عينيها.
قالت وهي تتجه نحو الباب: "وداعًا".
فهرعت نحوها وأمسكت بيدها وفتحتها ودفعت فيها بشيء ما ثم أغلقتها مرة أخرى. ثم استدرت في الحال واندفعت بعيدًا في سرعة إلى الركن الآخر لأتجنب الرؤية على أية حال..
كنت أنتوي الكذب فعلًا منذ لحظة فأكتب أنني إنما فعلت هذا عرضًا دون علم بما كنت أفعل بسبب بلاهتي وغبائي أو بسبب خروجي عن وعيي. ولكنني لا أريد أن أكذب ولهذا فسأقولها بصراحة إنني إنما فتحت يدها ووضعت فيها النقود.. بدافع الحقد. لقد خطر ببالي أن أفعل هذا وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا عندما كانت هي جالسة خلف الحاجز ولكنني أستطيع أن أقول على وجه اليقين إنني لم أقدم على ارتكاب ذلك العمل القاسي عامدًا بوازع من قلبي بل بوازع من عقلي الشرير. لقد كانت تلك القسوة متكلفة مصطنعة في عمد بل كانت كلها وليدة عقلي فحسب ووليدة الكتب إلى حد أنني لم أستطع التشبث بها دقيقة واحدة، فاندفعت بعيدًا أول الأمر لأتجنب رؤيتها ثم انطلقت بعد ذلك خلف ليزا في خجل ويأس. وفتحت الباب في الطرقة وبدأت أنصت.
صحت من فوق الدرج ولكن في صوت خفيض يحدوني الوجل قائلًا: "ليزا! ليزا!".
فلم أسمع جوابًا ولكن خيل إليَّ أنني سمعت وقع أقدام في أسفل الدرج.
فصحت بصوت أعلى قائلًا: "ليزا!"
ولكن ما من جواب. غير أنني في تلك اللحظة سمعت الباب الزجاجي الخارجي الثقيل يفتح في بطءٍ محدثًا صريرًا ثم يغلق في عنف وشدة وتردَّد رجع الصدى في أعلى الدرج.
لقد ذهبت وعدت إلى غرفتي مترددًا. وشعرت بضيق رهيب.
وقفت ساكنًا عند المنضدة بجانب المقعد الذي كانت تجلس عليه ونظرت أمامي بلا هدف ومرت دقيقة ثم فزعت فجأة، فقد رأيت أمامي مباشرة على المنضدة.. باختصار رأيت ورقة زرقاء مكورة من ذات الخمسة روبلات تلك التي كنت قد دفعت بها في يدها منذ دقيقة. كانت هي نفس الورقة ولا يمكن أن تكون ورقة أخرى إذ لم يكن هناك غيرها في الشقة. لقد تمكنت من إلقائها بيدها على المنضدة في نفس اللحظة التي اندفعت فيها إلى ركن بعيد من الغرفة.
حسنًا! كان من الممكن أن أتوقع منها أن تفعل ذلك. ولكن هل كان يمكنني أن أتوقع هذا؟ كلا! فقد كنت أنانيًّا لا أكن احترامًا لإخواني في البشرية إلى حد

أنني لم أستطع حتى أن أتخيل أنها ستفعل ذلك. فلم يسعني أن أتحمل هذا. وانطلقت أرتدي ملابسي بعد دقيقة واحدة كرجل معتوه متدثرًا بما أمكنني من الملابس بلا هدف أو غاية ثم هرولت راكضًا خلفها. فهي لا يمكن أن تكون قد قطعت أكثر من مئتي خطوة منذ أن اندفعت إلى الطريق.
كانت ليلة هادئة وكان الثلج يتساقط كتلًا في اتجاه يكاد يكون عموديًّا مغطيًا الإفريز والطريق الخالي كأنه وسادة بيضاء. لم يكن هناك أحد في الطريق ولم يسمع ثمة صوت. وكانت مصابيح الطريق تلقي ضوءًا خافتًا حزينًا لا يغني من شيء. جريت مئتي خطوة حتى بلغت مفترق الطرق ثم توقفت قليلًا:
- "أين ذهبت؟ ولماذا كنت أركض خلفها؟".
لماذا؟ لأجثو أمامها وأبكي ندمًا وأقبل قدميها وأتوسل إليها أن تغفر لي! كنت أتمنى ذلك. فقد كان صدري كله يتمزق إربا ولن أذكر! لن أذكر تلك اللحظة بعد ذلك في إعراض أو عدم اكتراث! ولكني فكرت قائلًا: لماذا؟ ألن أبغضها فيما بعد؟ وقد يكون ذلك غدًا لا لسبب إلا لأنني قبلت اليوم قدميها؟! هل سأمنحها السعادة؟ ألم أدرك قدر نفسي في ذلك اليوم للمرة المئة؟ ألا أعذبها؟
ووقفت تحت الثلج المتساقط أحملق في الظلام الثائر وأنعم النظر في الأمر. واستغرقت بعد ذلك في التأملات عندما وصلت إلى منزلي محاولًا أن أخنق الألم الحي في قلبي بالأحلام الخيالية فحدثت نفسي قائلًا: "أليس خيرًا لها؟ أليس خيرًا لها أن تبقي غضبتها للإساءة إلى الأبد؟ غضبتها؟ نعم إنها تطهير للنفس.. إنها إدراك شديد الوخز عظيم الإيلام! فقد ألوث روحها غدًا وأرهق قلبها في حين أن شعورها بالإهانة الآن لن يموت في قلبها مهما ساء القدر الذي ينتظرها، إن شعورها بالإهانة سيرقى بها ويطهرها.. بالكراهية.. وربما بالمغفرة أيضًا.. ولكن هل سيخفف ذلك من وطأة حياتها؟
والحق أني أريد هنا أن ألقي سؤالًا من جانبي.
أيهما أفضل السعادة الرخيصة أم الألم المطهر؟ حسنًا.. أيهما أفضل؟
وعلى هذا المنوال رحت أنسج أحلامي وأنا جالس في منزلي ذلك المساء أكاد أموت من الألم الذي يخنق روحي. فلم يحدث قط أن تحملت مثل هذا العذاب ووخز الضمير. ومع ذلك فهل كان هناك شك عندما اندفعت وراءها إلى الخارج في أنني سأعود من منتصف الطريق؟ لم أقابل ليزا قط في حياتي بعد ذلك ولم أسمع عنها شيئًا. وسأضيف إلى هذا أيضًا أنني ظللت فترة طويلة بعد ذلك أطرب لتلك العبارة الخاصة بما في الغضب والكراهية من خير ونفع وذلك رغم أنني كدت أسقط صريع المرض مما ألم بي من تعاسة.
وحتى الآن وبعد مرور عديد من السنين يتراءى لي كل هذا على صورة ما كذكرى أشد ما تكون إثمًا وشرًّا. ولديَّ الآن كثير من الذكريات الآثمة الشريرة ولكن.. ألا يحسن بي أن أنهي مذكراتي هنا. أعتقد أنني قد أخطأت بالبدء في كتابتها. وعلى أية حال فقد لازمني الخجلِ طِيلة الوقت الذي كنت أكتب فيه

هذه القصة حتى لتكاد تكون عقابًا إصلاحيًّا أكثر منها كتابة أدبية. فلا شك أن أسرد القصص المطولة التي تبين كيف أفسدت حياتي بما جلبته على نفسي من تعفن أدبي ومعنوي في ذلك الجحر الذي كنت أعيش فيه وبانعدام البيئة اللائقة وبانفصالي عن الحياة الحقيقية وبحقدي المتقد في عالمي السفلي ليس من الطرافة في شيء. فالرواية تحتاج إلى بطل، أما هنا فقد تجمعت (عن قصد) جميع ملامح (نقيض البطل) والذي يهمنا أكثر من كل شيء أنها تولد إحساسًا سيئًا لأننا جميعًا منفصلون عن الحياة وجميعنا مقعدون على صورة أو أخرى. فانفصالنا عنها يجعلنا نشعر في الحال بنوع من الكراهية للحياة الواقعية. ولهذا فلا يمكننا أن نتحمل أن يذكرنا شيء بها. بل لقد بلغ بنا الأمر أننا نكاد ننظر إلى الحياة الواقعية كمجهود شاق يقارب العمل وكلنا متفقون بيننا وبين أنفسنا على أن الحياة أفضل في الكتب. ولماذا نضج ونغتاظ أحيانًا؟ لماذا نتمرد ونطلب شيئًا آخر؟ شيئًا لا ندريه نحن أنفسنا. وتسوء حالنا إذا ما استجيبت دعواتنا النزقة. تعالوا وحاولوا أن تمنحوا مثلًا أي شخص منا مزيدًا من الاستقلال وأن تحلوا وثاق أيدينا وأن توسعوا مجال نشاطنا، أطلقوا لنا العنان قليلًا تروا أننا.. نعم أؤكد لكم ذلك.. تروا أننا نرجو ونتوسل ليشدد علينا الوثاق في الحال مرة أخرى. أغلب الظن أنكم ستغضبون مني لهذا وستصيحون وتضربون الأرض بأقدامكم وتقولون لي: تكلم عن نفسك وعن ألوان تعاستك في جحورك السفلية ولا تتجرأ فتقول (كلنا) معذرة أيها السادة فأنا لا أبرر موقفي بقولي (كلنا) أما فيما يخصني بالذات فلم أزد على بلوغي الحد الأقصى فيما لم تجرؤوا أنتم على أن تبلغوا به منتصف الطريق وأكثر من ذلك فقد حسبتم الجبن حسن إدراك ووجدتم الراحة في خداع أنفسكم. فقد أكون على الرغم من كل شيء أكثر حياة منكم. دققوا النظر فيما أقوله بمزيد من العناية! بل إننا لا ندري ماذا تعنيه الحياة الآن. ما هي وماذا تسمى؟! فلتتركونا وحدنا بلا كتب ولسوف نتخبط على الفور في ظلمات الحيرة والارتباك. ولن ندري عندئذ إلام ننضم وبماذا نتشبث وماذا نحب وماذا نكره وماذا نحترم وماذا نحتقر. إنه ليضايقنا أن نكون رجالًا، رجالًا من لحم ودم متميزين حقيقيين. إننا نشعر بالخجل من هذا. نظن أن ذلك خزي وعار ونحاول أن نتدبر وسيلة نصل بها لأن يكون جميعنا رجلًا واحدًا موحدًا فنجد ذلك مستحيلًا. فقد ولدنا ومازلنا نولد لآباء ليسوا على قيد الحياة، ولعل هذا يرضينا على خير وجه فإن استساغتنا لهذا تنمو تدريجيًّا. وسنتدبر بعد قليل وسيلة نُولَدُ بها على نحو ما لخاطر أو فكرة. ولكن يكفي هذا فأنا لا أبغي أن أكتب المزيد من (عالمي السفلي).

(مع ذلك فإن مذكرات هذا الرجل الشاذ لا تنتهي هنا. فإنه لم يستطع أن يكف عن المضي فيها. ولكن يبدو لنا أن نتوقف هنا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن هذا الكتاب..
مقدمة..
الجزء الأول
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالِث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السّابع
الفصل الثامِنُ
الفصل التاسع
الفصل العَاشِرُ
الفصل الحادي عشر
الجُزءُ الثانِي
الفصل الأوَّل
الفصل الثاني
الفصل الثالِث
الفصل الرَّابع
الفصل الخامس
الفصل السادِس
الفصل السَّابع
الفصل الثامِنُ
الفصل التاسِع
الفصل العَاشِرُ